فنّ الأدب

(الجزء الأول)

عنوان الكتاب : فنّ الأدب (الجزء الأول)

اسم المؤلف: توفيق الحكيم

تقديم : مالك صقور

اختيار : رضوان قضماني

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/95/ نيسان

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

توفيق الحكيم

فنّ الأدب

(الجزء الأول)

تقديم: مالك صقور
اختيار : رضوان قضماني

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (95)

توفيق الحكيم وفنّ الأدب

مالك صقور

يُعدُّ الأديب الكبير توفيق الحكيم، أن الأدب هو: "الكاشف الحافظ للقيم الثابتة في الإنسان والأمة"، وفي الوقت نفسه، يُعدُّ الأدب هو: "الحامل الناقل لمفاتيح الوعي في شخصية الأمة والإنسان". وهذا يعني: أن الإنسان هو الشخصية التي تتصل فيها حلقات الماضي والحاضر والمستقبل"

ويرى توفيق الحكيم أن الفن "هو المطية الحيّة القوية التي تحمل الأدب خلال الزمان والمكان"

وفي رأيه، أن الأدب من غير فن، يعني: رسول من غير جواد في رحلة الخلود... كذلك يرى أن الفن من دون أدب مطيّة سائبة، من غير محل ولا هدف" لذلك كان همّ توفيق

الحكيم أن يجمع بين (الرسول) و(جواده).. لهذا كله، يرى توفيق الحكيم: إن الأدب مع الفن. والفن مع الأدب.

لذا سمّى كتابه هذا "فَنّ الأدب".

* * *

ذكّرني كتاب توفيق الحكيم (فن الأدب) بكتاب ليف تولستوي: (ما هو الفن)؟ ليف تولستوي، أيضاً، كان همّه أن يوضح غاية الفن وهدفه ودوره في تربية الإنسان. كما ويعّدُ تولستوي، أن الفن هو وسيلة من وسائل تقدم البشرية. الفن: الذي يحمل ويعلن الحب، والخير والجمال، وذلك ما يرمي إليه توفيق الحكيم.

ولقد سبق توفيق الحكيم إلى ذلك الأديب الكبير ميخائيل نعيمة في كتابه: الغربال؛ عندما تحدّث عن (محور الأدب): فقال: "إذن فالأدب الذي هو أدب، ليس إلا رسولاً بين نفس الكاتب ونفس سواه. والأديب الذي يستحق أن يُدعى أديباً هو من يزوّد رسوله من قلبه ولبّه".

وهنا يلتقي ميخائيل نعيمة وتوفيق الحكيم وليف تولستوي حول أن الإنسان هو محور الفن، وسيده، وغايته وهدفه.

والفن، كما هو معروف، ظاهرة قديمة؛ ظاهرة اجتماعية معقّدة، وبالغة التعقيد، وبالغة القدم، وهو في الوقت نفسه، شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، وأحد نشاطات الإنسان الواعية.

ومن المعروف أيضاً أن الفن ومفهوماته، وموضوعاته، قد تطوّر، عبر القرون والعصور الكثيرة؛ وعبر مساره التاريخي، انقسم الفن إلى الأنواع (الأجناس) التالية:

1 ــ الأدب: من شعر ونثر. والنثر من رواية وقصة وبحث، ومقالة... إلخ..

2 ـ المسرح.

3 ـ الرسم

4 ـ النحت

5 ـ العمارة

6 ـ الموسيقى

7 ـ وبعد نشوء صناعة السينما، أطلقوا على (السينما) ـ الفن السابع.

* * *

وهكذا مع مرور العصور وانقسام الفن إلى أنواع أو أجناس، عن هذه الأنواع، انبثقت فنون أخرى، وصارت كلمة (الفن) تستخدم (كمفهوم) عند الحديث عن أي جنس أو نوع، حتى عن أي ظاهرة يدخل فيها أسلوب الفن، كأن تقول: فن السياسة، فن السياحة، لهذا نجد أن توفيق الحكيم، أطلق على كتابه: (فنّ الأدب)؛ الذي قسّمه إلى اثني عشر باباً تناول فيه: الأدب ويداه، الأدب العربي وتجدّده، الأدب والفن، الأدب والدين، الأدب والعلم، الأدب والحضارة، والأدب والمسرح، الأدب والصحافة، الأدب والسينما والإذاعة، الأدب ومشكلاته، الأدب وأجياله، الأدب والتزاماته.

* * *

صدر كتاب توفيق الحكيم (فن الأدب) عام 1952. وهو، قبل ذلك، كان قد أصدر أكثر من ثلاثين مؤلفاً، في الفكر، والمسرح، والقصة، والرواية، واطلع على الآداب الأوروبية، والعربية. وفي هذا الكتاب يضع توفيق الحكيم (نظرياً) تجربته وخبرته التي اكتسبها كمبدع مسرحي، ومفكر، له وجهة نظر، فجاء كتابه هذا أقرب إلى الكتاب المدرسي ـ الأكاديمي، الذي يفيد منه الأستاذ، ويفيد منه طالب العلم، مبنياً أهمية الخلق ـ الابتكار، فالأدب عند توفيق الحكيم له يدان:

يمناه: الخلق الذي ينتج ويبتكر.

ويسراه: النقد الذي ينظم ويفسّر.

يتناول توفيق الحكيم في هذا الباب قضية (الخلق) الأدبي. يقول: "فالخلق ليس معناه أن تخرج من العدم وجوداً". بل هو "أن تنفخ روحاً في مادة موجودة". ومن ثم يضرب مثالاً، إن الله سبحانه وتعالى، أعظم الخالقين، حين أوجد (آدم) ـ فكان منه أن مدّ يده أولاً إلى الطين، الموجود أصلاً قبل آدم ـ فسوّى منه ذلك المخلوق الحي.

يعتمد توفيق الحكيم في رأيه هذا، على موضوع من أهم موضوعات الأدب المقارن، من دون أن يذكر ذلك، وهو أن أغلب (آيات الفن) موجودة، وموضوعاتها منقولة من موضوعات سابقة، ويسوق أمثلة على موليير، وراسين، وسوفوكل، والذين أخذوا موضوعاتهم من (هوميروس). وعند التدقيق في موضوعات هوميروس ذاته، يجد الباحث أنه أخذها من أساطير، وأشعار لأناس مجهولين قبله. كذلك، يضرب أمثلة، على الأدب العربي القديم إذ يقول: "فإننا نجد في الشعر معنى البيت الواحد وموضوعه، ينتقلان من شاعر إلى شاعر، ويلبسان في كل زمن حلّة وصياغة". ومن ثم يصل إلى نتيجة مفادها: "إن الفن ليس في الهيكل، إنه في الثوب، الفن هو الثوب. الفن هو الثوب الجديد الذي يلبسه الفنان للهيكل القديم. إنه الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير".

ويستدرك توفيق الحكيم بعد هذا قائلاً: فالابتكار، إذن، لا شأن له بفكرة جديدة أو قديمة أو غريبة أو مألوفة، ولا بالموضوع الطريف، أو المطروق. وقد تسألني بعدئذ: ما هو الابتكار الفني؟ فأقول لك بسرعة وبساطة:

هـو أن تكـون أنـت... هـو أن تحقـق نفسـك، هـو أن تسـمعنا صـوتك أنـت، ونبرتـك أنـت.. إن أعظـم معجـزة في الكـون للخالق الأعظم جل شأنه، هي "شخصية الإنسان".

وهو بهذا، يشبّه عملية الخلق الأدبي، (بخلق الإنسان)... فملايين الملايين، من البشر تتوالد، وتتعاقب، وتفنى، وتولد مـن جديـد، ولا تطـابق شخصـية منهـا شخصـية أخـرى تمـام الانطباق، في الأجسام والعقلية والروح والذوق والطبع".

قديماً، قال الجاحظ: المعاني مطروحة بالطريق.

وأمـا اليـد الأخـرى، أو يسـراه، كمـا يسـميه توفيـق الحكيم، هو النقد. الذي يعدّه، الحكم الفاصل، والميزان الدقيق، وإن كان (النقد) هو حكم وميزان، فلا بد لـه إذن من دستور وقانون.

وكمـا هـو الحـال عنـد ميخائيـل نعيمـة في الغربـال، بالنسبة لمواصفات الناقد، فإن للناقد عند توفيق الحكيم مواصـفات. يقـول: "فللناقـد صـفات يجـب أن تتـوافر فيـه، أهمها: أن يكـون كفقيـه القـانون، بحـراً عميـق الاطـلاع في الأدب الـذي يدرسـه، والآداب الأخـرى القائمـة ــ ماضـيها وحاضـرها، حتـى يتيسـر لـه التقـدير للقـيم، والموازنـة بـين

الأنواع والتشريع للمذاهب، وأن يكون واسع الأفق، ليفهم كل الأغراض، قوي المعدة، ليهضم كل الألوان".

يتناول توفيق الحكيم في الباب الثاني من الكتاب (الأدب العربي وتجدّده)، في هذا الباب يعود المؤلف إلى البدايات. فيذكّر بالفنون في عصور غابرة، (مصر القديمة، الهند، الإغريق، الرومان). ويعرج على الأدب الجاهلي (امرؤ القيس ولبيد) مقارناً بين لغة الصحراء، وبين لغة العمران، يقول: "فالشعر زهرٌ قد ينبت في الخلاء، أما النثر فيحتاج في نموه إلى العمران".

ويتابع تطور الأدب العربي وتجدده، وكيف هضمت الحضارة الإسلامية ما سبق من حضارات، وكيف ازدهرت الفنون المعاصرة (في حينها)، مثل "الرسائل" و"المقامات"، ومن ثم ظهور الحكايات الشعبية، والملاحم الشعبية: مثل، "عنترة" و"مجنون ليلى"، و"ألف ليلة وليلة" وسيرة "أبي زيد الهلالي" وسيف بن ذي يزن".

ويتوقف عند الجاحظ، الذي يُعدُّ الأستاذ المباشر لأكثر رجال القلم في الأدب المعاصر، كونه رفع علم التجديد، وعلّم الكتاب أن الأسلوب أداة للتعبير القويم عن

النفس والفكر، وفي الوقت نفسه، يُعدُّ الجاحظ هو أول رسام ـ في هجائه ـ وهذا ما أطلق عليه فيما بعد في الرسم "الكاريكاتور".

الكاريكاتور، في الحقيقة، هو الرسم الهجائي، أو الهجاء بوساطة الرسم. بعد الجاحظ، ينظر المؤلف نظرة جديدة إلى أبي العلاء من خلال "رسالة الغفران".

* * *

الأدب والدين، هما موضوع الباب الرابع، ويَعدُّ الحكيم أن الدين والأدب كلاهما يضيء من مشكاة واحدة، هذه المشكاة هي التي تضيء درب الفنان، ورجل الدين، وأن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفني. إذ لا بدّ للفن أن يكون مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق".

في هذا السياق، يقول ليف تولستوي: "ولذلك كان الوعي الديني وما يزال موجوداً في كل المجتمعات. ووفقاً لهذا الوعي الديني كانت الأحاسيس التي ينقلها الفن تقوم دائماً على أساس هذا الوعي الديني لزمن معين حصراً".

ومن ثم ينتقل توفيق الحكيم إلى الأدب والعلم، والأدب والحضارة. وهما نهاية هذا الجزء.

ونحن في اتحاد الكتاب العرب، إذ نقدم ونعيد طباعة هذا الكتاب للجيل الجديد، والطلاب الذين لم تتح لهم قراءة هذا الكتاب، فإننا نأمل أن يلقى العناية، ويقدم الفائدة المرجوة.

والله من وراء القصد

(ويليه الجزء الثاني)

الباب الأول
الأدب ويـــــــداه

يمناه الخلق الذي ينتج ويبتكر

ويسراه النقد الذي ينظم ويفسر...

الخلق الذي يبتكر

ما هو الخلق في الأدب؟.. ما هو الابتكار الأدبي؟..

سؤال ليس من السهل الجواب عنه في عبارة.. فالخلق ليس معناه أن تخرج من العدم وجوداً. إنما الخلق في الأدب وفي الفن ـ وربما في كل شيء ـ هو أن تنفخ روحاً في مادة موجودة.. كذلك صنع أعظم الخالقين يوم أوجد آدم. فهو تعالى لم يمد يده العلوية إلى الفضاء قائلاً: "كن!" فكان، ولكنه مد يده أولاً إلى الطين ـ مادة أوجدت قبل آدم ـ فسوى منه ذلك المخلوق الحي...

لا شيء إذن يخرج من لا شيء.. كل شيء يخرج من كل شيء.. ذلك هو الدرس الأول في الخلق.. أريد لنا أن نتلقاه عن الخالق الأكبر...

كـذلك، لـيس الابتكـار في الأدب والفـن أن تطـرق موضوعاً لم يسبقك إليه سابق، ولا أن تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك... إنما الابتكار الأدبي والفني، هو أن تتناول الفكرة التي قد تكون مألوفة للناس، فتسكب فيها من أدبك وفنك ما يجعلها تنقلب خلقاً جديداً، يبهر العين، ويدهش العقل... أو أن تعالج الموضوع الذي كاد يبلى بين أصابع السابقين؛ فإذا هو يضيء بين يديك، بروح من عندك..

وإذا تأملنا أغلب آيات الفن، فإننا نجد موضوعاتها منقولة عن موضوعات سابقة موجودة؛ فالكثير من موضوعات "شكسبير" نقل عن "بوكاشيو" وبعض "موليير" عن "سكارون" و"لوب دي فيجا"، و"جوته" في قصة "فاوست": عن "مارلو" ومآسي "راسين" عن مآسي "ايروبيدس"، و"ايروبيد" و"سوفوكل"، و"راشيل": عن "هوميروس"، وشعراء الشعب المجهولين المتنقلين بالأساطير.. فإذا عرجنا على الأدب العربي القديم، فإننا نجد في الشعر معنى البيت الواحد وموضوعه، ينتقلان من شاعر إلى شاعر، ويلبسان في كل زمن حلة وصياغة، حتى اختلف

النقاد والباحثون والأدباء فيمن يفضلون: أهو أول من طرق الفكرة والموضوع أم خير من صاغهما وأجراهما على الألسن وأتاح لهما الذيوع؟... على أن أرجح الرأي هو أن الموضوع في الفن ليس بذي خطر. وليست الحوادث والوقائع في القصص والشعر والتمثيل بذات قيمة، ولكن القيمة والخطر في تلك الأشعة الجديدة التي يستطيع الفنان أن يستخرجها من هيكل تلك الموضوعات والحوادث والوقائع.

إن الفن ليس في الهيكل. إنه في الثوب. الفن هو الثوب الجديد الذي يلبسه الفنان للهيكل القديم. إنه الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير.

وليس هذا بالمطلب اليسير. فما أشق الإتيان بجديد في موضوع غير جديد...! وما أعسر الكشف عما لم يكشف في بناء تقتحمه العيون وتنقب فيه العقول، في كل الشعوب وكل الأزمان. ومن أجل هذا كان عمل "راسين" في قصة "أندروماك" ـ تلك الشخصية التي تناولها من قبله كثير من المواهب والأذهان؛ ـ أعظم في تاريخ الأدب من عمل "بونسون دي تيراي" في روايته "روكامبول" تلك الشخصية المفتعلة التي

اخترعها من رأسه اختراعاً، ونسج حوادثها العجيبة من مخيلته نسجاً.

قال "شسترتون" فيما أذكر، مقدماً لكتاب من كتب "ديكتر": "إنه ما من علامة أفصح في الدلالة على انعدام الابتكار عند بعض الشعراء، من نزوعهم إلى البحث عن الموضوعات الغريبة. إن أرفع مراتب الابتكار قد يتسنمها شاعر يتغنى في "الربيع"؛ فغناؤه يقطر دائماً جدة ونضارة، شأنه شأن الربيع ذاته، ذلك الجديد النضر دائماً، مهما تتعاقب عليه القرون والحقب..."

فالابتكار إذن لا شأن له بفكرة جديدة أو قديمة، غريبة أو مألوفة، ولا بالموضوع الطريف أو المطروق... وقد تسألني بعدئذ: ما هو الابتكار الفني؟ فأقول لك بسرعة وبساطة: هو أن تكون أنت.. هو أن تحقق نفسك، هو أن تسمعنا صوتك أنت، ونبرتك أنت... إن أعظم معجزة في الكون للخالق الأعظم جل شأنه، هي "شخصية الإنسان" .. ملايين الملايين من البشر تتوالد وتتعاقب؛ فلا تطابق شخصية منها شخصية أخرى تمام الانطباق، في الأجسام والمشاعر والعقلية والروح والذوق والطبع.. كل شخص يظهر

في الأرض جديد، جدة تنبثق معه وتختفي معه، إلى أبد الآبدين. فالإنسان هو الإنسان، ولكنه في كل مرة يولد، إنما يولد جديداً.. لا يكرر بالضبط إنساناً غيره.. ولا يشابه بالضبط شخصاً سواه.. فملايين الملايين من الناس في كل زمان مثلهم كمثل بصمات الأصابع لا يمكن أن تتطابق كل التطابق... يا له من معين لا ينضب من الخلق الإلهي!... على أن هذه الجدة التي تخلق مع الناس ـ هذه الجدة في المشاعر والعقل والروح والإحساس ـ لو لازمتنا طويلاً لرأينا بها العجب، ولكن أوضاع الحياة الاجتماعية، وناموس القوى والضعف، وجاذبية الأجسام الكبرى للصغرى التي تسري على الآدميين كذلك؛ ـ كل هذا يفعل فعله... فما نكاد نولد ونفتح أعيننا الصغيرة، حتى يتلقفنا الكبار من حولنا، ويقودونا ويلقنونا: فلا نبصر الأشياء إلا بأعينهم، ولا نسميها إلا بما وضعوا لها من أسماء، وما أضفوا عليها من صفات وسمات...

لقد كتب علينا هذا المصير: أن نفقد جدتنا ونحن في المهد، وأن نلف في أردية القدم منذ الطفولة، وأن يفقأ آباؤنا عيوننا الجديدة باللمسة الأولى، وأن يصموا آذاننا بالصيحة

الأولى. ومن فر منا ببعض البصر، وواجه الدنيا بعينيه هو فانبهر؛ ـ فهو ذلك الذي نطلق عليه فيما بعد اسم "الشاعر المبتكر".. بل ليت الطفولة أيضاً تبقى طويلاً؛ فهي ـ على ما فيها من توجيه الكبار ـ تحتفظ بعالم خفي خاص يتصل مباشرة بأسرار الطبيعة المتحررة من منطق الناس.

هذه الطفولة ـ بعالمها المشيد في أحضان الطبيعة الطليقة تستطيع ـ أن ترى الأشياء في جدتها السحرية... وصدق ذلك الذي قال: من استطاع أن يبقى طفلاً، فقد استطاع أن يصير شاعراً!.. على أن الخطر رابض بعد ذلك في محيط الأدب والفن أيضاً، فهنالك الشخصية القوية كالنواة في الذرة، شدت إليها الشخصيات الصغرى، فأعمت أبصارها؛ فلا ترى إلا ما ترى الكبرى، ولا تقول إلا ما تقول...

فإذا سئلت عن "الربيع" قالت، لا ما تحس هي وترى، بل ما سمعت ورأت من خلال أسطر نفس كبيرة مشرقة في عصرها أو في عصور الغابرين.

إلى أن تتحطم الذرة، وينفرط عقد النواة، ويتحرر من تتكشف له نفسه.. فيقول قولاً ندرك من ساعتنا أنه له؛ فالصوت صوته، والنبرة نبرته، والفرحة فرحته، والدمعة

دمعته. فنصغي معجبين: هذا قول مبتكر، وهو ما زاد في حقيقة الأمر على أن حقق نفسه.

لكن.. ما أصعب ذلك على الأديب والفنان!... ما أصعب إظهار الفنان شخصيته هو لا شخصية سواه، وإسماع صوته هو لا صوت غيره!... قد يبدو ذلك سهلاً لأول وهلة، وقد يعتقد الفنان أو الأديب اعتقاداً جازماً أنه ينطق بلسانه هو، دون أن يدري، أو يفطن إلى أنه إنما يردد لغة من سبقوه، ويدور في فلك عظيم من عباقرة الأدب والفن، وهو لا يشعر أو يريد...

نعم.. ما أصعب تحطيم الذرة في الأدب والفن أيضاً! وأي دوي وانفجار أيضاً لهذا الحدث في تاريخ الآداب والفنون؟!... إن بروز الشخصية، مفروزة جلية، هو معجزة الفنان. كم من الجهد بذل "بيتهوفن"؛ لينطلق من نواة "موزارات"؟!... إن آثار هذا الجهد لم تزل باقية في سنفونيته الأولى، وما أروع كفاح "جوته" في شبابه ــ مع أقرانه الشعراء، في سبيل التحرر من تأثير "فولتير" والخروج عن نطاق جاذبيته!.. إنها لمضنيةٌ مؤلمة، تلك الجهود التي تبذلها النجوم؛ لتضيء في

حضـرة الشـموس!... وإنهـا لتعـيش في انتظـار السـاعة، الـتي تصبح فيها شموساً بدورها، تجري من حولها النجوم.

إن مجـال الخلـق الأدبـي والفـني لمفعـم بالعجائـب، وقـد يـدرك المتأمـل لـه أنـه تـابع لنظـام الـذرات والكواكـب؛ فأسـلوب الخـالق الأعظـم واحـد، في أصـاغر المخلوقـات وفي أكابرها، في طاقتها المادية، وفي نشاطها المعنوي...

إن الفنـان أو الأديـب يظـل يبحـث عـن ذاتـه وشخصـيته، إلى أن يجدها، فإذا هي تملكـه بعـد ذلـك إلى الأبـد، وتطبـع كل مـا يلبسـه بـذلك الطـابع، الـذي لا يـزول ولا يتحـول. وإذا هـو يعـرف بطابعـه، لا فيمـا ينشـئ فقـط، بـل فيمـا يحـاكي أيضاً. ولو تأملنـا الأدب العربـي لوجدنا مـن شـعرائه الأكـابر مـن تعمـد محاكـاة غـيره، أو تقليـده، أو معارضـته في بعـض قصائده؛ فإذا هو ـ على الرغم من إرادة المحاكاة ـ يخرج فناً مبتكـراً مختومـاً بطابعـه هـو لا طـابع مـن حاكـاه.. ذلـك أن الشخصـية الفنيـة، بعـد أن تتكـون، يصـبح لهـا مـن القـوة مـا يجذب إليها كل شيء، ويخضـع إلى أشـعتها كـل فكـرة أو صـورة أو موضـوع. فكـل مـا تتناولـه يصـبغ في الحـال بلونهـا. فالفنـان أو الأديـب ذو الشخصـية يبتكـر؛ حتـى وهـو يريـد أن

يقلد. والفنان ـ الذي لم يستقل بعد بشخصيته ـ يقلد، وهو يريد أن يبتكر.

ولكن طغيان الشخصية شديد.. فالفنان يظل يدور حول "نواة" غيره، طالباً الانفصال عنها والاستقلال بذاته. فإذا انفصل واستقل دار حول ذاته، وسيطرت عليه شخصيته. كل فنان ذو طابع، هو حبيس طابعه. انقطع شهوراً لدراسة فنان بارز الشخصية، هب نفسك لشيطان أعماله كلها مجتمعة، فلن يمضي بك الوقت حتى تكون قد عرفته وأحببته، وسئمته وألفته، في كل إشاراته ولفتاته، وارتفاعه وانحطاطه، وقدرته وعجزه. إن تأمل آثار الفنان كاملة تكشف لك عن شخصيته الكاملة، فتعرف أسلوبه في التفكير والتعبير، وطريقته ي تناول الأشياء. ولكنك ـ وقد أحطت به ـ ونفذت إلى لبه، لابد صائح يوماً بلهجة المحبة والألفة: دائماً هذه الطريقة!... دائماً هذا الأسلوب!... لو يخرج عن ذلك قليلاً!!..".

يخرج عن ذلك إلى أين؟ ... وكيف يخرج عن طريقته وأسلوبه؟... إنها ذاته.. تلك مأساة الطابع والشخصية؛ ما دام قد صار له طابع، فلن يخلع عنه أبداً... ولا بالموت. كل خالق

ذو أسلوب سجين أسلوبه. إن أسلوب الفنان ذي الشخصية كملامحه، لا يمكن أن يغيرها أو يبدلها أو يتخلص منها.. ذلك هو ما يسمى بالابتكار في الفن والأدب.

النقد الذي يفسر

ما من شيء كثر فيه الخلاف مثل النقد، وقواعده ومذاهبه...

ما هو النقد؟... يقولون: إنه الحكم الفصل، وهو الميزان الدقيق..

إذا كان "النقد" هو حكم وميزان، فلا بد له إذن من دستور وقانون. ما هو الدستور أو القانون الذي يمكن أن يوضع أو يسن؛ لنعلن بمقتضاه أن هذا الأثر الفني جيد أو غير جيد؟

اجتهد أعلام النقد وأئمة البلاغة في التقنين والاستنباط، وخرجوا بأصول، قالوا: إن في المقدور أن نقيس بها الخلق الفني؛ فنعرف جيده من رديئه، ونميز معدنه الطيب من معدنه الخبيث. ولو صدق هذا الاختراع في الفن

كما صدق في التعدين، وكانت لهذه الأصول التي تقاس بها أعمال الفن والأدب، دقة ذلك الجهاز الحساس الذي يعرف منجم الذهب من منجم النحاس؛ ـ لهان الأمر على النقد والنقاد والأدباء والفانين.

ولكن هذه الأصول، أو هذا الجهاز، إذا طبقت على كثير من آيات الفن والأدب؛ فإننا نجد اضطراباً، ونلحظ اختلالا، ونقف موقف الحائر المتسائل: هل نصدق الآية الفنية، أو نصدق الجهاز؟!..

ذلك أن كثيراً من بدائع الفن الخالدة يخرج على تلك الأصول، فنراه أحياناً لا يخلو من نقص في البلاغة، أو ركاكة في العبارة، أو أخطاء في النحو، أو وقوع في اللغو.. ولكن إلى جانب تلك المآخذ روعة، أي روعة؟!... ثم هنالك أثر فني آخر انطبقت عليه الأصول تمام الانطباق. فلا لحنة ولا غلطة، ... فصاحة ما بعدها من فصاحة، ومنطق كحد السيف يصيب المفصل، وقد يكل الطرف، وتكد الفطنة فلا تعثر فيه على هنة من أضأل الهنات.. كل شيء فيه صحيح، سليم، متين؛ ـ ولكنا نحس ـ مع ذلك ـ أن لا شيء فيه يحركنا.. أو يهز نفوسنا.

الجمال في الفن كالجمال في المرأة! .."كليوباترا" ـ على الرغم من أنفها غير الدقيق ـ آية خالدة في تاريخ الحسن النسوي!... وكم من نساء نبصرهن كل يوم لهن من الأنوف الدقيقة، والعيون النجل، والخصور النحيلة؛ ـ ما لم تظفر "كليوباترا" بالقليل منه، وبرغم هذا لا نراهن رائعات ولا فاتنات.

ما السر في أن امرأة قد استكملت شروط الحسن، وليست بحسناء، وأخرى شابتها عيوب، وهي السحر والفتنة؟!...

في المرأة والفن، هنالك شيء؛ لا ندري ما هو، يخرج على كل قاعدة، ويهزأ بكل أصول؛ هو الذي يجعل الجميل جميلا... من أجل هذا، انحرف النقد عن المذهب الموضوعي إلى المذهب الشخصي، وطلع نفر من النقاد يقولون: إن الذوق هو الحكم والميزان ولكن ما هي الذوق؟. هنا أيضاً مشكلة تبرز على الفور: لو عرفنا الذوق وحددناه لأصبح هو الآخر أصلاً من الأصول، ومقياساً ثابتاً جامداً، يتحطم عند أول اختبار، وننزلق إلى المذهب الموضوعي مرة أخرى، دون أن نشعر؛ فلنكتف إذن بالقول بأن الذوق ملكة شخصية،

تفرز الزائف من الصحيح، والحسن من القبيح!... ولكن ـ ما دامت ملكة شخصية ـ كيف نفرز أيضاً الشخص الذي ركبت فيه هذه الملكة، وكل الناس لا شك قائلون إن الذوق نابت فيهم مع أظفارهم؟... ونحن لو استطعنا أن نتصيد من غمرة الناس تلك اللؤلؤة الفريدة، وهي الناقد صاحب الذوق الذي لا ينازع ولا يدافع؛ ـ لكانت فرحتنا به أضعاف فرحتنا بمن سينقد من الأدباء والفنانين.

لكن العثور على هذا الناقد ذي الذوق يحتاج ـ هو الآخر ـ إلى ناقد ذي ذوق يستكشفه وهلم جرا... لا، ليس للذوق الشخصي ضابط، وإذا ترك الحكم في الآثار الفنية والأدبية للذوق وحده؛ فقد ترك إذن للفوضى أو للمصادفة وهذا هو المطعن الذي يرمي به المذهب الشخصية في النقد.

ولعل خير منهج للناقد أن يجمع في نقده بين شتى الاعتبارات، ويؤلف بين مختلف النظرات، فيختار الأثر من بين مختلف الآثار بذوقه كاشفاً عن نواحي جماله، ثم يحلله بغربال عليه، ليخرج لنا ما انطبق منه على الأصول وما لم ينطبق. وذلك لمجرد التحليل والبحث والدرس، لا لإصدار الأحكام بناء على هذا الاعتبار وحده؛ فإذا فرغ من ذلك

بقي أمامه الشطر الأجمل من عمله النقدي: وهو تقويم الأثر بقيمته في المحيط الأدبي القومي أو الإنسان، ووضعه في مكان من "خانة" النوع، ومقارنته بالسابقين له في ذلك السجل؛ مبيناً مدى تأثره إياهم، ومبلغ اتفاقه معهم في المذهب، أو اختلافه عنهم في المسلك. أمكرر هو أم مؤكد أم مجتهد في باب معروف؟... أم هو فاتح أو ضارب في طريق غير مألوف؟... مع مراعاة الحقيقة لا الإسراف، والدقة لا الإغراق؛ ذلك بأن النقد عندنا في الأدب العربي الحديث سار طويلاً في درب مقتضب: هو أن ينقد الأثر، كما لو كان قد وجد ملقى على الأرض كاللقيط، لا يعرف له أب ينتمي إليه؛ فهو فريد عصره ونسيج وحده... إن الأدب أو الفن في أي أمة وعصر، أسرة متحدة؛ فيها الآباء، وفيها الأبناء... فيها من تكونت شخصيته فأثر، وفيها الناشئ، الذي يتأثر. ولكل منهما عند الناقد عملة بها يحاسب... فالفنان أو الأديب الذي تكونت شخصيته فأثر، ينبغي لفهمه درس شخصيته الفنية أولا، وشخصية الفنان أو الأديب لا تتكون إلا من كتلة أعمال...

إن العمود الفقري للشخصية الفنية هو سلسلة آثار، يستطيع الباحث أن يتتبع في حلقاتها صفاته وعيوبه ولوازمه وعاداته، ومزاجه واتجاهاته؛ لهذا كان على النقد الفني أن يفرق دائماً بين فنان، في أعماله الأولى، يتلمس خطاه نحو شخصيته، وفنان عرف له طريق واتجاه. فقضية النقد للمبتدئ تتلخص في:

"كيف صنع هذا؟" وقضية النقد للناضج هي: "لماذا صنع هذا؟": الأول لم نعرف له شخصية بعد، فعلينا أن نعينه على معرفة طريقة إليها؛ فنناقشه: كيف أنتج ذلك الأثر؟ ما هو حياته؟ وما أدواته؟ وأي خطى يتأثر؟ وفي أي طريق يسير؟ وبأسلوب من تشبع؟ ولأفكار من تشيع؟ أما الثاني، وقد عرفنا شخصيته ووجهته، فواجبنا أن نبحث: لماذا أخرج هذا الأثر الأخير؛ ليحقق به أي جانب من جوانب شخصيته التي نعرف عنها الكثير؟... لماذا صنع هذا؟... أترى الغرض منه تأكيد فكرة من أفكاره السابقة؟ أم الرجوع عن بعض هذه الأفكار؟ أو الانحراف إلى اتجاه جديد لا نعرفه له؟ أو الخضوع لإحساس بعينه يلاحقه في كل أثر من آثاره؟... فالنقد للأديب الجديد موجه، وللأديب القديم مفسر...

ينبغي للنقد الفني أن يوجه الجديد إلى شخصيته التي لم تظهر، وأن يفسر للقديم شخصيته التي ظهرت.

والأديب القديم يفاضل بنفسه، وينقد الأخير من آثاره على ضوء السابق من أعماله. والأديب الجديد يقارن بالأديب القديم، وينقد عمله على ضوء أعمال من فتحوا له باب النوع الذي يعالجه، والفرع الذي يثمر فيه... وكل أديب قديم كان يوماً جديداً. وكل أديب جديد سيكون يوماً قديماً. فتعدد النظرة في الأمس والغد فيه تعدد لجوانب. وبهذا يعرف الأديب إذا اكتمل كل وجوه القول فيه، وكل ما يربط إلى سابقيه ولاحقيه... فالأدب أو الفن أو العلم في كل زمان ومكان، سلسلة طويلة، تتسلم فيه كل حلقة من الأخرى، ثم تسلم... ومهمة النقد هي أن يربط هذه الحلقات بعضها ببعض؛ ليجعل منها هذه السلسلة الذهبية التي يزدان بها صدر البشرية. والنقد في عملية الربط بين الحلقات إنما يقوم في حقيقة الأمر بعمل إنشائي ضخم. ولسنا بمبالغين لو قلنا: إن الآثار الأدبية بغير نقد بنائي، يربط بين أجزائها واتجاهاتها؛ ـ لا يمكن أن تصنع أدباً بالمعنى المعروف في الآداب الكبرى. فمن الجائز أن تنبت قصيدة شعرية رائعة

بين الزنوج بلغتهم في غابة من الغابات؛ لأن الإحساس الفني يمكن أن ينبت في أي مكان، ولكنا لا نستطيع أن نتحدث عن أدب الزنوج، إلا إذا وجد النقد الذي ينظم آثار هؤلاء القوم، ويكشف عن مصادرها وأهدافها واتجاهاتها... شأن النقد في الأدب كشأن الفقه في القضاء... فليس الحكم العادل وحده هو الذي يصنع علم القانون، كما يعرف في الأمم الكبرى... فما أكثر الأحكام العادلة التي تصدرها مجالس التحكيم عند البدو أو عند كثير من القبائل الفطرية!... فهل نستطيع أن نسمي هذه الأحكام قضاءً بالمعنى القانوني؟ ...لا ... لماذا؟ لأنه ينقصها الفقه، الذي يجمعها ويمحصها ويرتبها، ويستخرج منها الاتجاهات والنظريات والمذاهب والمبادئ، فالفقهاء في الشريعة الإسلامية والقوانين الرومانية والأوروبية، قديماً وحديثاً؛ هم الذين بغوصهم في أعماق النصوص، وتفسيراتهم للأحكام قد شيدوا هذا البناء الضخم المتناسق المتماسك لهذه الشرائع والقوانين. كذلك النقاد أي فقهاء الأدب والفن، بانكبابهم على الآثار الأدبية والفنية، يستخلصون منها التفسيرات والمقارنات والمذاهب والاتجاهات؛ ــ قد أقاموا بجهودهم

المتصلة صروح الآداب والفنون. فالأدب العربي القديم، ما عاش حتى اليوم أدباً خصباً، وما بقي لنا تراثٌ غنيّ؛ ـ إلا بفضل رواته ونقاده وباحثيه الذين تفقهوا في درسه، ووازنوا بين شعرائه وأدبائه، وأظهروا لنا أسرار أساليبه، وآيات بلاغته، وكشفوا عن مؤثراته ومراميه، ومدارسه واتجاهاته، في مختلف العصور والأزمان... فالأدب الفني لابد له من نقد إنشائي؛ كما أن القضاء العظيم لابد له من فقه عميق. ولعل ما يبدو على الأدب العربي الحديث من فقر، بالنسبة إلى الأدب العربي القديم؛ ـ راجع ـ لا إلى ضعف الإنتاج الأدبي الحديث في ذاته، بل إلى ظهوره وحيداً غير مستند إلى نقد إنشائي في مستواه، يقوم بمهمة التنظيم والتفسير، والربط والتبويب.. فكان من أثر ذلك الإهمال أن بدا الأدب العربي الحديث، في صورة جهود فردية غير جدية... وسيظل كذلك إلى أن يظهر النقاد العظام الذين يتوفرون على درسه، ويخرجونه للناس والأجيال، بناء متسقاً؛ مرتبطاً حاضره بماضيه... على أن ظهور الناقد العظيم ليس بالأمر السهل؛ فللناقد صفات يجب أن تتوافر فيه، أهمها: أن يكون كفقيه القانون، بحراً عميق الاطلاع

في الأدب الذي يدرسه، والآداب الأخرى القائمة ـ ماضيها وحاضرها؛ حتى يتيسر له التقدير للقيم، والموازنة بين الأنواع، والتشريع للمذاهب. وأن يكون واسع الأفق؛ ليفهم كل الأغراض، قوي المعدة؛ ليهضم كل الألوان.

فذلك الذي لا يستسيغ نوعاً من الشعر، أو لوناً من النثر، أو فرعاً من القصص، أو ضرباً من التمثيل؛ ـ لا يجوز له أن يقدم على نقده، وإبداء الرأي فيه. وعليه أن يتنحى ويرد نفسه عن الحكم؛ شأن القاضي الذي كون في القضية رأياً قبل البحث، أو اتصلت ظروفها بعلمه قبل النظر... في لغة القانون يقولون: "ليس للقاضي أن يحكم بعلمه"؛ ذلك أن القاضي يجب أن يحكم بناء على ما بين يديه من مستندات... لا بما يتصل بعلمه الشخصي... كذلك في لغة الفن يجب أن نقول: "ليس للناقد أن يحكم بميله"؛ ذلك أن الناقد يجب أن يحكم على الأثر الأدبي أو الفني، بناء على قيمته الذاتية، لا بما يمليه عليه مزاجه الخاص... فالناقد الذي يكره مثلا شعر المديح؛ إما أن يمتنع عن نقد قصيدة في المديح، وإما أن يتجرد من بغضه للنوع، ويزنها

بميزانها في نوعها... ولكن ليس له أن يسبها لمجرد أنها في المديح، وهو يكره هذا النوع من أنواع الشعر...

هذه الصفات والملكات لو توفرت في بضعة نقاد، فإنهم يستطيعون أن يقيموا ميزان النقد الفني على نحو منتج. وبقيام هذا الميزان في أدب من الآداب، يقوم حرصه شامخاً على أعمدة الزمان.

الباب الثاني
الأدب العربي وتجدده

الأدب العربي حافظ لروحه دائماً على الرغم من تجدد منابع إلهامه، وتغير مظاهر أثوابه. ومن ينظر إليه بعين جديدة يبصره دائماً جديداً...

أثواب الأدب العربي

طالما قلت: إننا لو تأملنا الآداب القديمة، لوجدنا أنها قد عاصرتها فنون كبرى: فمصر القديمة والهند والإغريق والرومان...الخ؛ ـ كانت المعابد العظيمة، والتماثيل الرائعة فيها "خليقة" أن يعاصرها أدب، يضارعها في قوة البناء، ودقة التركيب، وروعة الفن: (الملاحم، والقصص، والتمثيل) ولكن الذي حدث في تاريخ الأدب العربي، كان غير ذلك. لقد نشأت لغة نضرة زاهرة، في بيئة قحلاء وسط الصحراء، ولقد كان أقصى ما عاصر لغة "امرئ القيس" أو "لبيد" أو "زهير" من مظاهر الفنون الأخرى؛ ـ تلك المسوخ والتهاويل لآلهة من الحجر، لا يجرؤ أحد أن ينسبها إلى الفن، في قليل أو كثير. ولعل هذا من مفاخر اللغة العربية، أن نراها قد برزت وحدها هذا البروز بين الرمال؛ كأنها

عـرار أو أقحـوان، ولعـل الفضـل في ذلـك راجـع إلى الشـعر؛ فالشعر زهر قد ينبت في الخلاء، أما النثر فيحتاج في نموه، إلى العمران... إلى أن جاء العمران بعد ذلك، بظهور الإسلام، وتكونـت حضـارة إسـلامية، واسـعة الأرجـاء، فأقيمـت المساجد الجميلة. على أنقاض الهياكل القديمة، وشيدت القصـور، وملئـت بالبـدائع والطرائـف والتحـف، وتقـدمت الصناعات، وازدهـرت الفنون، وابتلعت الحضارة الإسـلامية في جوفها كثيراً من الحضارات، ومع ذلك، لم يحاول الأدب العربـي أن يزيـد في قوالـب نثـره، أو أن يسـاير تلـك الفنـون المعاصـرة، ولم يخـرج ـ في الناحيـة الإنشـائية ـ عـن ثوبيـه المعروفين، وهما: "الرسائل" و"المقامات".

والمقامـات أعمـال قصصـية، قصـد بهـا سـرد حكايـة، وتصـوير أشـخاص، ولكـن الإغـراق في الوشـي اللفظـي، والاحتفـال بالوضـع اللغـوي؛ صـرف الكاتـب عـن التعمـق في التحليـل، والإفاضـة في السـرد، والإجـادة في البنـاء. فـالأدب العربي الإنشائي في تلك الأزمان، قد عنى باللفظ أكثر مما يجـب، ولم يشـأ أن ينـزل عـن تكلفـة الـذي يعتـبره فصـاحة

وبلاغة؛ ليصور ما يجيش في نفس الشعب من إحساس، وما يهيجه من خيال.

وهنا حدث أمر عجيب: فروح الشعب لا يقهر... هذا الشعب في عصور الحضارة الإسلامية المختلفة، قد تعطش للون جديد من الأدب غير لون البداوة الأولى، لون من الأدب مستمد من إحساسه بالحياة الجديدة المتطورة المتغيرة... أدب جديد قائم على فن مساير للفنون الزاهرة المعاصرة. فلما لم يشأ أدباء الفصحى أن يمدوا الناس بحاجتهم، لجأ الناس إلى أدباء من بينهم لا يملكون أداة اللغة، ولا جمال الشكل، ولكن يملكون السليقة الفنية وروح الخلق... وهنا ظهر الأدب الشعبي... فما ظهور الأدب الشعبي أحياناً إلا علامة قصور، أو تقصير من الأدب الرسمي، أو صرخة احتجاج على جمود الفصحاء.

هكذا ظهر القصص الشعبي العربي في صورة "عنترة" و"مجنون ليلى"، وسارت الحضارة الإسلامية، فسار معها الأدب الخيالي الاجتماعي الشعبي، فإذا نحن أمام عمل فني رائع هو "ألف ليلة وليلة"... ثم نبت في كل شعب من شعوب الإسلام قصصه التي تطبعه بطابع عصره: فكان في مصر

قصة "أبي زيد الهلالي" و"سيف بن ذي يزن" و"الظاهر بيبرس" وغيرها وغيرها الخ...

ومن الغريب أننا إذا تأملنا "التصميم" الفني، والبناء الروائي لهذا الأدب الشعبي وجدناه من حيث الفن ـ لا اللغة ـ هو السائر في الطريق الصحيح، محاذياً تلك الفنون والعلوم التي ظهرت بظهور الحضارة الإسلامية ولقد كان من المستغرب حقاً للباحث أن يرى هذه الحضارة ذات فنون وعلوم، ولا يجد في أدبها آثاراً إنشائية تماثل ما عند جيرانها، حتى كادت تتهم العقلية الإسلامية بعقم خيالها. ولكن الأدب الشعبي الإسلامي صحيح الوضع أمام التاريخ، وأثبت أن حضارة الإسلام سارت في مجراها الطبيعي، مع فارق واحد: وهو أنه في الحضارات الأخرى؛ مثل الهندية أو الفارسية أو الإغريقية، كان خاصة الشعراء والأدباء هم الخالقين لتلك الآثار. أما في حضارة الإسلام؛ فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه، ووقفوا بعيدين عن كل تعبير أو ابتكار...

حتى القرآن، ما حاولوا أن ينتفعوا به انتفاعاً فنياً؛ فلقد أتى القرآن بجديد في فن الكتابة ـ لا اللغة وحدها ـ بل

القصص والأساطير. لقد استخدم "الفن القصصي" في التعبير عن المرامي الدينية. ولكن المدهش أن الأدب العربي لم ير في القرآن إلا نموذجاً لغوياً... ولم ير فيه النموذج الفني. فلم يخطر له استلهام قصصه، أو استغلال أساطيره استغلالا فنياً مستفيضاً... إن وحي الأدب العربي لم يرد أن يتحرك... لا إلى أعلى، ولا إلى أسفل... لا نحو القرآن، ولا نحو الشعب. غير أن من الإنصاف أن نستثني واحداً من أعلامه، هو "الجاحظ" فهذا الكاتب شعر بالخطأ، فسلك مسلكاً آخر، ونزل إلى الشعب يستوحيه، ويصور أسواقه وبخلاءه ولصوصه وتجاره وشرفاءه وخبثاءه، في أسلوب بسيط حي، يعد مثلاً طيباً للنثر التصويري في عصور الحضارة العربية، وهو بعينه الأسلوب الذي أثار على "الجاحظ" المسكين نقد المتنطعين من أدباء عصره، فرموه بالعامية والركاكة والابتذال. ونستطيع أن نستثني أيضاً بعض الجانب الفني لمقامات "الحريري" و"بديع الزمان" فهذه المقامات من حيث رسم أشخاصها، وتصوير المجتمع في عصرها تكاد تعطينا أحياناً صوراً ناطقة على صغرها: كأنها صور "المنياتور" الفارسي. ولم يفسد هذه الآثار الفنية إلا أسلوبها اللغوي،

وكأنها لم تكتب لا لإبراز رصانة اللغة، وثراء اللفظ، وبراعة السجع. أما الخلق الفني فلم يخطر ـ فيما يظهر ـ للكاتبين على بال.

وهكذا انطوت قرون، وما زال هذا السد قائماً بين النثر العربي، بسجعه وبلاغته المصطنعة، وبين خيال الشعب ورغباته وآماله... ولو أن أدباء الفصحى هدموا هذا السد من قديم، ونزلوا عن بعض جمودهم، وعبروا عن مطالب عصرهم وشعبهم؛ لكان الأدب العربي اليوم في مقدمة الآداب العالمية، فهذا الأدب بما لديه من قرآن عرف القصص والأساطير، وما راج في مجتمعه من أشباه "عنترة" و"ألف ليلة وليلة" وما وضع في لغته من "مقامات" تعد أساساً لفن الأقصوصة؛ ـ هو أحق من يزعم للآداب الأخرى أنه أحد أساتذة الفن الروائي.

لكن واأسفاه... إنه الأدب الرسمي اللغوي، قد وقف حائلاً دون مجرد الاقتراب من كنوز الشعب؛ كأنما هي شيء مزر بمقام فضلاء الأدباء؛ لهذا لم نجد أديباً عربياً جرؤ على النظر في كتاب "ألف ليلة وليلة" مستلهماً فنه، متغاضياً عما في لغته من قصور... لأن الأدب في عرفهم

مرادف اللغة الفصحى المنمقة الرصينة المتحذلقة، حتى أتى "الجاحظ" بتجديده؛ محاولاً منذ قرون تغيير تلك الفكرة قليلاً في مسألة اللغة والتصوير الشعبي، ولكن التجديد والجمود يتعاقبان في الأمم والآداب والفنون؛ تعاقب النهار والليل. ومنذ أن وطئ "المغول" بسنابك جيادهم حضارة الإسلام، والأدب العربي يعيش في ذلك الليل الطويل.

إلى أن طلع أخيراً فجر العصور الحديثة، فبزغت أشعة التجديد مرة أخرى. فإذا نظرنا الآن إلى الأدب العربي في ردائه الحديث، أي منذ انتهاء الحرب الكبرى الأولى حتى اليوم؛ ـ رأينا ظاهرة تسترعي الالتفات... هي استئناف الاتجاه الذي بدأه "الجاحظ" ولكن على نطاق أوسع، وبخطوات أسرع. فالأسلوب الكتابي قد تحرر نهائياً من السجع، وتخلى عن الوشي اللفظي، وانطلق إلى البساطة والسهولة والمرونة. والوحي الفني لم يعد يفرق بين مصدر الخاصة ومصدر العامة؛ فقد تحطم السد بين الأدباء الرسميين، والأدباء الشعبيين في نظر أدباء هذا العصر.

وإذا نحن نرى الشعراء... يستلهمون القصص الشعبي العربي القديم فيما ينظمون، ونرى الأدباء يستوحون "ألف

ليلة وليلة" فيما ينشئون ويدرسون. كما أن إهمال القدماء للأساطير الإسلامية في القرآن وغيره قد صحح، واتجه الأدب اليوم إلى استغلال هذا المصدر استغلالاً فنياً!...

على أن المهم، في كل ذلك، هو استخلاص الصفة المميزة لاتجاه الأدب العربي في ردائه الحديث، وإن استخلاص ذلك ليس بالأمر السهل؛ فإن النظرة العجلى توقع في الخطأ... ولقد خدع بعض المستشرقين والباحثين بمظهر بعض قوالب هذا الأدب، وخصوصاً قوالب القصص والتمثيل؛ فأسرع يقرر أن الصفة المميزة لهذا الأدب اليوم هي تأثره المطلق بالآداب الأوروبية... والنظرة المتعمقة ترينا أن الأدب العربي ـ ككل أدب حي ـ لم يغمض ولا يستطيع أن يغمض عينه عن الحضارات المحيطة به... ولقد فعل ذلك في كل أطواره الغابرة. فتأثره، فيما مضى، بالثقافة الهندية والفارسية والفلسفة اليونانية، لا يقل عن تأثره اليوم بالثقافة اللاتينية والأنجلو سكسونية...

ذلك أن من الحمق أن نطالب أدباً بالاحتفاظ دائماً بردائه القديم، أو نطالب شخصاً بأن يبقى على جسده ثوبه العتيق؛ حتى نستطيع إذا قابلناه أن نميز شخصيته. هناك

فرق بين الشخص والرداء، والأدب العربي محتفظ بشخصه وروحه دائماً على الرغم من تغير أرديته بتغير الأزمان. فهو في نظر الباحث المتعمق يسير سيره الطبيعي... والطبيعي هو أن يرتدي ثياب عصره، ويخرج في زي زمانه... فلا يسخر منه أحد ويقول: إنه يرتدي في القرن العشرين ثياباً تاريخية كالممثلين... كلا... إنه يعيش عصره مع العالم، ويرتدي الزي العالمي المعاصر، ولكنه ـ برغم ذلك ـ يحتفظ دائماً بجنسيته وروحه وتفكيره، وذكريات ماضيه ومشاعر نفسه... نعم... إن الفرق كبير جداً بين الروح والرداء... وآداب الشعوب الحية اليوم كصورتها: رداء واحد، وروح مختلف!...

الجاحظ وعصرنا

قلما يحتفظ الإنسان بشيء من آثار الصبا؛ فإذا عثر على أثر من تلك الآثار ـ وقد وخطه الشيب؛ ـ كان لذلك في نفسه أجمل الوقع... وإني لكثرة التنقل في الحياة، وبعد الشقة في الزمن، قد فقدت كثيراً من آثار صباي... ولكني عجبت ذات يوم، وقد وقع في يدي كتاب لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ... كتب على جلدته اسمي فوق عبارة: "سنة أولى فصل أول"، بخطي الذي كان لي في ذلك الوقت... وما رأيت أنه مختلف كثيراً عن خطي في هذه الأيام... لقد فرحت بذلك الأثر. ورجعت بفكري القهقري، وأنا أتساءل: أحقاً كنا نقرأ الجاحظ في مثل تلك السن؟!... أغلب الظن أن هذا الكتاب لم يكن من مقررات المدارس في ذلك العهد... إنما هو نوع من المطالعات الخاصة التي كنا نغرق

فيها خارج الدرس... ذلك أني لم أنس صفحة من صفحات هذا الكتاب الذي كنت أقرؤه كثيراً، في ذلك الحين، مع ما كنت أقرأ من آثار الأدب القديم. والحق أن الجاحظ ـ وقد مضى على وفاته أكثر من ألف عام ـ هو الأستاذ المباشر لأكثر رجال القلم في الأدب العربي المعاصر؛ لأنه رفع علم التجديد، وعلم الكتاب أن الأسلوب أداة للتعبير القويم عن النفس والفكر، ولا وشي من اللغو، ولا بضاعة من الزخرف، يراد بها اللهو... وإني لموقن أن الجاحظ لو استطاع أن ينظر إلينا من عالمه الآخر، لما أنكر كثيراً من الأساليب التي ينشئ بها كتاب اليوم أفكارهم... بل إنه، لفرط صدقه في تصوير نفسه وعصره، وصراحته في التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة فيه وفي الناس؛ ـ قد لا يرى إلا تغييراً يسيراً في المحيط الأدبي، لا في الشرق وحده، بل في كل مكان وزمان، يوجد به أدب وأدباء، وكتاب ومؤلفون!... ولنستمع إليه إذ يقول بلغته، التي كان يكتب بها منذ عشرة قرون: "... إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن: في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة، وأنسبه إلى نفسي:

فيتواطأ على الطعن فيه، جماعة من أهل العلم، بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته... وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك، معه المقدرة على التقديم والتأخير، والحط والرفع، والترهيب والترغيب؛ فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة، فإن أمكنتهم الحيلة من إسقاط ذلك الكتاب ـ عند السيد الذي ألف له؛ ـ فهو الذي قصدوه وأرادوه... وإن كان السيد المؤلف له الكتاب تحريراً نقاباً وحاذقاً فطناً، وأعجزتهم الحيلة؛ سرقوا معاني ذلك الكتاب، وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً، أهدوه إلى ملك آخر... وهم قد ذموه وثلبوه، لما رأوه منسوباً إلي، وموسوماً بي... وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ـ فأترجمه باسم غيري، وأحيله على من تقدمني عصره؛ مثل ابن المقفع؛ ـ فيأتيني أولئك القوم الطاعنون على الكتاب؛ الذي كان أحكم من هذا الكتاب ـ لاستنساخه وقراءته علي، ويكتبونه بخطوطهم، ويصيرونه إماماً يقتدون به... ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم، لأنه لم يترجم باسمي؛ ولم ينسب إلى تأليفي..." الخ

ما الذي تغير اليوم من هذه الصورة، وما الذي بقي؟ ما من ريب في أن الغرائز البشرية التي وصفها "الجاحظ" لا سبيل إلى زوالها...

فلقد استولت على النفوس، اليوم أيضاً، روح الاستهانة بالمثل العليا... وتملك القلوب والأجسام شيطان المتعة اليسيرة العاجلة!... ما من أحد يريد أن ينقطع إلى علم، أو يتوفر على فن... إنما الكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة! ... فلم يعد للكثيرين جلد على درس، أو صبر على كدح... وبعضهم لا ينظر إلى الجهد الذي يجب أن يبذل، ولكنه يبصر المراتب التي يجب أن يرقى إليها؛ لا يريد أن يضيع وقتاً في الغرس البطيء، والإعداد الطويل ــ ولكنه يريد الثمرة عجلاً متلهفاً... لذلك قل الاطلاع العميق، وندرت القراءة المجدية؛ فاختلت الموازين، وفسدت القيم!...

يضاف إلى ذلك شعور بالنقص، وضعف في الثقة بالنفس والجنس: فالفكرة المنسوبة إلى أوربي تحترم بغير بحث، والفكرة المنسوبة إلى مصري أو شرقي تهمل بغير فحص... كما أن اختلاف الثقافة: من كيفٍ وكم، وتباين العقلية: من قديم وحديث، أو سطحي وعميق، وتضارب

الأذواق: من سلامة وسقم، أو ارتفاع وانحدار، كل ذلك يجعل مهمة الأدب الجدي اليوم عسيرة، ويضيق نطاق الجديرين بالنظر فيه...

ذلك هو العصر الذي نحياه... وما أرى "الجاحظ" إلا راضياً عن نفسه، قانعاً بمصيره، لو أتيح له أن ينظر إلينا اليوم من غابر زمانه!...

فن جديد عند الجاحظ

خيل إلي ـ وأنا أقرأ كتاب "التربيع والتدوير" للجاحظ ـ أنه يصنع فناً طريفاً في زمانه، بدون أن يدري؛ فقد أراد أن يصف رجلاً يعرفه، ويتهكم عليه... فأمسك بالقلم وخط له صورة ـ لو كانت بالرسم، لا بالبيان؛ لأطلق على عمله الآن: اسم "الكاريكاتور"!...

ومن مفاخر "الجاحظ" أن يكون تصويره بالنثر ـ بذلك قد يفوز في هذا المضمار بالسبق؛ لأنّ فن "الكاريكاتور" في الرسم قديم، عرفه التاريخ منذ عرف فن الرسم والتصوير؛ فإن مضحكات البشر وحماقاتهم وعيوبهم وسوءاتهم، ورغبة البعض في الضحك من البعض؛ ـ كل هذا قديم قدم الإنسانية نفسها... فكما عرف الشعراء منذ القدم كيف يهجون، عرف الرسامون كيف يسخرون!...

ولقد وجد فن "الكاريكاتور" منقوشاً على الأواني الإغريقية: كما وجد منقوشاً على جدران "الهركيولانوم"؛ وفي "بومبي"... بل لقد عثر عليه في آثار مصر القديمة.

أما في مجال الكتابة: فإن أقرب الأساليب شبهاً "بالكاريكاتور"، قد نجده في القرن السادس عشر... وقد نجده في كتاب "الأحلام المضحكة" لرابليه، وقد نجده في كتاب "تمجيد الحماقة" لا يراسم!... وغير ذلك من الكتابات التي تهدف إلى إبراز ما تخفيه طبائع الناس ومظاهرهم من مثالب...

إذا صدق ظني؛ فالجاحظ إذن من اسبق الكتاب إلى التصوير الكاريكاتوري.

لقد ظهر ـ قبله بالطبع ـ كثير من الهجائين؛ شعراء كانوا أو ناثرين ولكني أعتقد أن الهجاء شيء، والكاريكاتور شيء آخر... إن في كل "كاريكاتور" نوعاً من الهجاء، ولكن ليس في كل هجاء نوع من "الكاريكاتور"!... إنك بالهجاء تريد أن تنال ممن تهجو: بالحق وبالباطل، بالحقيقة أو بالافتراء؛ دون أن تقصد في كل الأحوال أن تثير فينا الضحك منه، أو تظهرنا على

مواضع فيه، باعثة على العبث به والتندر عليه!... كل همك في الهجاء: أن تزري بخصمك، وأن تطعنه في عزته وكرامته ومواطن رفعته وقوته. أما في "الكاريكاتور": فإن غرضك الأول، هو أن تبحث عن الغلطة المحسوسة في تكوينه الجثماني، وأن تنقب عن السقطة الملحوظة في تركيبه النفسي، وأن تفتش عن الخلة الممقوتة في طبعه الخلقي ـ حتى إذا عثرت على شيء من ذلك، وأنت لا شك واجد في أغلب الأحيان؛ ـ بادرت إلى قلمك أو ريشتك؛ فقمت تمعن في تجسيم هذا العيب وتضخيمه، وإبرازه على نحو يجعله في نظر الرائي أو القارئ طاغياً على ما عداه من صفات!.. فلا يقع البصر أو الذهن إلا على العيب وحده قائماً؛ كأنه هو الشخص كله، وليس للشخص سواه من قوام أو كيان أو وجود...

ولنصغ إلى "الجاحظ" حيث يقول في كتابه عن ذلك الرجل الذي جعله فريسة لتصويره: "كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر، ويدعى أنه مفرط الطول وكان مربعاً وتحسبه؛ لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدوراً. وكان جعد الأطراف، قصير الأصابع؛ وهو في ذلك يدعي

البساطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه، أخمص البطن، معتدل القامة، تام العظم. وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي أنه طويل النجاد، رفيع العماد، عادي القامة، عظيم الهامة، قد أعطى البسطة في الجسم، والسعة في العلم. وكان كبير السن، متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب، حديث الميلاد... الخ..".

وعلى هذا النحو يمضي "الجاحظ" يصور لنا ذلك الرجل تصويراً، لا يريد به هجاءه؛ بقدر ما يريد به إضحاكنا منه!... وهذا هو روح فن "الكاريكاتور"...

على أن من الشعراء من أتقن ذلك اللون بشعره أكثر مما أتقنه "الجاحظ" بنثره.... وكلنا يذكر لابن الرومي تلك الأبيات التي يصف بها رجلاً أحدب:

قصرت أخادعه وطال قذاله

فكأنه مترقب أن يصفعا

أو أنه قد ذاق أول صفعة

وأحس ثانية لها فتجمعا

وهكذا زاول العرب فن "الكاريكاتور" شعراً ونثراً، حيث لم تتح لهم الظروف أن يزاولوه رسماً ونقشاً... كل شيء خطر على بال عبقريتهم... وإنهم ليعرضون دائماً ما يفوتهم في جانب، بالإجادة في جانب آخر!... قانون التعويض الطبيعي كان رائدهم الخفي في حضارتهم... حضارة كاملة شاملة، آن للغرب الظالم المجحف أن ينظر إليها بعين التقدير والتوقير!...

نظرة حديثة إلى أبي العلاء

ما من شيء كان يخلب لب الشرقي في "باريس" مثل مناظر الرقص في مسرح "الفولي برجير" أو "الطاحونة الحمراء"... هناك ترى عيناه الستار، قد انفرج عن جنة من ورق، نضرته الأصباغ، وأنعشته الأنوار!... قامت فيها أشجار، تتساقط من بين أغصانها حور عاريات، يهبطن المسرح راقصات مغنيات... لا ذلك الرقص الذي نراه في بلادنا مقصوراً على هز الثدى والأرداف، ولكنه رقص هو إلى الشعر أقرب؛ فما مجموعة الراقصات هناك إلا بيت من الشعر!.... كل امرأة فيه كلمة!... وكل كلمة ذات معنى خاص من حسنها الذاتي!... وإذا الكلمات أو الراقصات يتجمعن في عبارة من حركاتهن المنسقة، لها معنى أشمل وأعم؛ كمعنى بيت منظوم له روى ونغم!!... كنا نشاهد ذلك

عقب الحرب العالمية الأولى، ونقول في أنفسنا معجبين: بالخيال الغريب!!...

لقد أنستنا براعة الإخراج ما في بطون الكتب!... ذلك أن العجب الأكبر هو أن "أبا العلاء المعري" تخيل أكثر من ذلك منذ ألف عام!... ولنرجع إلى تصوره لحدائق الحور، ورقص الحور في "رسالة الغفران" ولنصغ إليه حيث يصف: "ويمر ملك من الملائكة فيقول: "يا عبد الله! أخبرني عن الحور العين، أليس في الكتاب الكريم: "إنا أنشأناهن إنشاءً، فجعلناهن أبكاراً، عرباً أترابا، لأصحاب اليمين"؟...

فيقول الملك: "اقف اثري"!... فيتبعه، فيجيء به إلى حدائق، لا يعرف كنهها إلا الله. فيقول الملك: "خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها؛ فإن هذا الشجر يعرف بشجر الحور!"... فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة ـ أو ما شاء الله من الثمار ـ فيكسرها، فتخرج منها جارية حوراء عيناء!... الخ... ومضى أبو العلاء يروي أن "الخليل بن أحمد" دخل الجنة، وكانت له أبيات تصلح لأن يرقص عليها.. فأنشأ الله شجرة من الجوز، تونع لوقتها، ثم تنفض عدداً من الثمر،

تنشق كل جوزة منه عن أربع جوار يرقن الرائين؛ يرقصن على أبيات "الخليل":

إن الخليط تصدع فطر بدائك أوقع

لولا جوارُ حِسان مثل الجآذر أربع

لقلت للظاعن اظعن إبذا بدا لك أو دع

أكان ينقص هذا الخيال غير مخرج يقيمه فوق مسرح؟!. ولكن الذي يدهشني حقاً، هو أن فكرة "أبي العلاء" عن الرقص لا نرى لها أثراً فيما ورثاه من ذلك الفن!.. لقد كان ذلك الضرير مثل، "هوميز"؛ يتخيل الأشياء في سموها وعلوها، لقد استطاع أن يرى فن الرقص على ما ينبغي له من نبل وارتفاع!... ولكن المحيط الاجتماعي فيما أعتقد هو الذي طبع الرقص الشرقي بهذا الطابع الذي نعرف؛ فقد كان هذا الفن ـ مما تزاوله الجواري ـ لا ليعرض أمام الجماهير، في مكان رحب، ولكن ليعرض أمام ولى أو سيد، في لحظات أنس ومتعة، في خدر من الخدور، أو مجلس من مجالس الشراب والسرور!... هذا المكان الضيق، وهذه الظروف الخاصة حددت شكل ذلك

الذي نسميه اليوم بالرقص الشرقي... فكان مجاله ـ كما نرى ـ جسم الجارية، والحركة فيه لا تتعدى حركة أعضائها؛ فالراقصة بلحمها وحده: هي كل مدار الرقص، وكل مسرحه!... ومعاني فنها لا تتجاوز إبراز محاسن أعضائها؛ على النحو الذي يروق لرجل في يده كأس... أما الرقص الغربي فقد ورث أصوله عن الإغريق... والمجتمع الإغريقي عرف الرقص فناً يعرض في الهواء الطلق أمام الجماهير... وكان لشيوع الألعاب الرياضية "الجمباز" وازدهار النحت، و"التراجيديا" أثر ـ ولا ريب ـ في طبع الرقص الإغريقي بذلك الطابع الذي ترى صوره اليوم على بقايا الأواني، وأفاريز المعابد!... رقص ليس المجال فيه جسم الراقصة وحده، بل حركة ذلك الجسم ـ في إطار المكان ـ وليس رويه ونظمه ونغمه في التناسق، بين حركة ردف وبطن، بل بين تماوج راقصة وراقصة!... في الرقص الشرقي، يدور الحوار دائماً، بين عضو وعضو في جسم راقصة!.... أما الرقص الغربي، فالحوار يدور بين الراقصة والهواء، وبين مجموعة من الراقصات والفضاء!.... وإن الأذرع والسيقان

والأقدام لتتحرج وتتماوج ولكنها لا تفقد أبداً الصلة بينها، وبين الطبيعة المحيطة بها من أرض وفضاء...

إن الراقصة الشرقية دائماً فوق الأرض؛ كأنها في الطين مغروسة. أما الراقصة الغربية: فكأنها تريد أن تثبت أنها تمشي في الهواء مرتفعة عن الأرض؛ فهي تخطو على أطراف الأنامل، وتثب كأنها جواد!...

إن الصلة بين الجواد والراقصة يلمحها كل من نفذ إلى روح الرقص... لقد حدثنا "بول فاليري" ـ فيما حدث ـ عن المصور "دجاس"، الذي حذق تصوير راقصات "الباليه" ـ أن ذلك الفنان لم تغب عنه تلك العلاقة بين الراقصة والجواد؛ فقد كان يدرس خيل السباق فيما يدرس من مصادر فنه!... فالجواد هو الآخر يمشي على أطراف حوافره متبختراً؛ أنامل أربع تحمله!... ما من حيوان غيره يشبه الراقصة الأولى في مجموعة "الباليه"!... ولقد ذكر لنا أن "دجاس" وصف جواداً ببيت من الشعر قال فيه: "عصبي المزاج، في عريه الكامل، وثوبه الديباج"!.

هنا أيضاً نجد شعراء العرب قد فطنوا إلى ذلك الشبه، وتلك الصلة، وقالوا في الجواد مثل ذلك قبل قرون!... وهاهو ذا "البحتري" يقول:

جذلان تحسده الجياد إذا مشى

عنقاً بأحسن حلة لم تنسج

وقبله قال "زهير":

وملجمنا ما إن ينال قذاله

ولا قدماه الأرض إلا أناملـه

كما قال، كذلك "ابن المعتز":

إذا مال عن أعطافه قلت شارب

عتاه بتصريف المدامة طافح

ما قصر شعراء الشرق إذن في فهم روح الرقص، ولكن الذي جنى على هذا الفن هو روح المجتمع الشرقي!... لولا ذلك، لكان "أبو العلاء المعري" هو خالق "الباليه" الأول...

الباب الثالث
الأدب والفـــــــــن

إذا كان أحدهما الكأس

فالآخر الخمر!...

مع فن الطفولة

إذا أردت أن تعرف: ما هو أروع صوت كان يبهر مشاعرنا، ونحن صغار؛ فاعلم أنه صوت الطبلة!... لا طبلة الجيش المظفر، يسير تحت نوافذنا منشور البنود، ولا طبلة حراس "المحمل"، تدق من فوق الجمال المزوقة، ولا حتى طبلة "المسحراتي" في ليالي "رمضان" الساحرة؛ بل طبلة صغيرة متواضعة... هي طبلة "الأراجوز"، إذا اقترب من حيِّنا...

عند ذاك ترى العجب: أفواجاً من الأطفال، يخرجون من بيوتهم ركضاً؛ كأنهم جنود، يهبون من ثكناتهم على دقات طبل "الطابور"! ... ويجتمعون كالنمل في تلك الساحة، حيث ينصب "الأراجوز" مسرحه الضيق المرتفع!... يتطلعون إليه بعيون شائعة، وأبصار زائغة، ينتظرون ظهور تلك الأشخاص المتحركة المتكلمة الصاخبة، أو تلك التي نسميها نحن الكبار الآن: دُمَى!...

لا أنسى ذلك اليوم الذي هرعت فيه إلى الساحة، على صوت تلك الطبلة وفي ذيلي جاري الطفل "عطية" وقد كان أصغر مني بنحو عامين؛ يركض بركوضي، ولا يدري أين نذهب؟!....

فقد كان ذلك اليوم أول عهده برؤية "الأراجوز"!... وقفنا ننتظر محملقين بين الجموع، حتى دبت الحياة في المسرح الصغير، وظهرت على خشبته دمية، تمثل شخصية امرأة "شرقاوية"؛ بملبسها الأسود، وبرقعها الكثيف المحلى بالجزع والخرز... فما أشعر إلا ويد الطفل "عطية" تجذبني جذباً عنيفاً!...

ولقد نسيت في تلك اللحظة أن له خالة من أهل الشرقية... فلم أعره بالا... إلا أن يئس مني، فتركني وجرى مخترقاً الصفوف، حتى وقف بأسفل المسرح، فرفع رأسه إلى تلك "الشخصية"، وصاح بها في نبرة جد أعرفها منه:

ـ خالتي!... خالتي "أم خميس"!....

ـ نعم يا بني!...

فصاح الطفل:

ـ أمي بتسلم عليكِ!...

ـ أمك مين؟..

لفظتها الدمية بلهجة ساخرة، لم يدركها بالطبع الطفل، ومضى يجيب بكل جد:

ـ أمي.. "أم عطية"!...

ـ سلم لي عليها!

قالتها الدمية على عجل، فقد ظهرت عند ذاك دمية أخرى، تمثل خفيراً يحمل هراوة ضخمة، اقترب من "الشرقاوية" وقال لها: "امشي من هنا يا ولية!..." وأشبعها سباً وشتماً، وانهال على أم رأسها بنبوته ضرباً، فلم يكد الطفل "عطية" يرى ذلك، حتى بكى بدمع سخين، وترك الجمع، وجرى إلى بيته صائحاً:

ـ أمي!... أمي!... الخفير نازل ضرب بنبوته في خالتي "أمي خميس"!.

فنهضت أمه دهشة مستغربة:

ـ خالتك "أم خميس"!... هي فين؟ ..دي في الريف.. وإيش جابها مصر؟!

ـ لا ... دي هنـا... وقالـت لـي سـلم علـى أمـك!... وطلـع الخفير طردها وضربها بالنبوت!...

ـ ويطردهـا ليـه؟ ويضـربها ليـه؟.. هـل لـه ضـرب عليهـا؟! تعال يا بني ورِيني هي فين؟!

وقامت إلى ملاءتها، فتدثرت بها، وأمسـكت بيد ابنها "عطية"، وخرجا لنجدة "أم خميس"...

ومشيا مسرعين حتى بلغا الساحة... وهناك وقف الطفل ووقفت أمه بوقوفه، وأدارت بصـرها في المكـان... فلم تجـد غـير "أراجـوز" يلعـب، وصـبيان وعيـال محملقـين فيـه مشدوهين... فصاحت بابنها:

ـ هي فين خالتك يا بني؟

وكان الخفير لا يزال يضرب بهراوته رأس الشـرقاوية، وهـي تصـيح وتولـول، وتبادلـه لعنـاً بلعـن وبـذاءة ببـذاءة، وتسـتغيث بالنـاس، ملوحـة بـذراعيها في الهـواء!... فجـذب "عطية" والدته من طرف إزارها، وأراد أن يخترق بها جموع الغلمان، وهـو يبكـي ويشـهق وينشـج، ويشـير إلى الشـرقاوية

الغريقة في شجارها مع الخفير، منادياً إياها: "يا خالتي"... صائحاً بها أنه قد أحضر أمه؛ لإنقاذها مما هي فيه...

وأدركت "أم عطية" الأمر وفهمت حقيقة الموقف، وخشيت أن تتعرض لسخرية لاعبي "الأراجوز" فخلصت طرف ثوبها من قبضة ابنها... وقفلت راجعة إلى بيتها، وهي تتميز من الغيظ، وتقول مخاطبة نفسها:

ـ يا مصيبتي في غبط الولد!... قال دي خالته "أم خميس"!...

***

هل حقا هو "عبط" ما وقع من ذلك الطفل؟!... لطالما طرحت على نفسي هذا السؤال، ... بل تساءلت: ألا يستطيع مثل ذلك الطفل أن يميز ـ على الأقل ـ بين الأحجام؟... لقد كان حجم تلك الدمى الصغيرة أضأل بكثير من الحجم الآدمي، وهو مع ذلك لم يحفل بالفروق، ومضى يعتقد ما اعتقد؛ ذلك أن الطفل لا يرى الأشياء بعينه، بل يراها بخياله... إن الحقيقة عنده ليست في الإطار الخارجي للأشياء، بل في المعنى الذي ترمز له!... ليس يعني الصبي أن

يكـون سـيفه مـن صـفيح أو حديـد أو خشـب... إنـه سـيف وكفى!... وإنه ليعطي هذا المعنى المجرد قوة أصلب من قوة المادة، وإنه ليس يعني الصبية أن تكون عروسها من قطن أو ليف أو طين... إنما هـي معنى يثير فيها غرائز الأمومة؛ فهي تحتضنها، وتضفي عليها من الأسماء والصفات ما يخيل إليها أنها جسم حي؛ لذلك كانت حياة الطفولة أخصب من حياة الكبر؛ لأن الطفل ـ ذلك الساحر أو الفنان ـ يستطيع أن يقلب الصفيح حديداً، والقطن جسداً نابضاً، والزجاج ماساً لامعاً... لا قيمة عنده لحقيقة المادة... يكفي أن يمسها بيده لتصبح لها الحقيقة التي يريدها...

فطن إلى ذلك أصحاب "الأراجوز"، أو "صندوق الدنيا"، فتراهم لا يكلفون أنفسهم جهداً ولا نفقة ولا حذقاً، في إخراج دماهم أو صورهم، على نحو متقن كل الإتقان!... لكأنهم يقولون لأنفسهم: "وما فائدة ذلك؟... إن المخرج الحقيقي هو الطفل نفسه!"... نعم... يكفي أن يظهروا له قطعة من الخشب، رديئة الحفر والنحت والنقش، يلفونها في خرقة سوداء قائلين: إنها امرأة شرقاوية وعلى الطفل الباقي!... إنه هو الذي يلبس هذه الخشبة لحماً ودماً،

ويمنحها حجماً وروحاً، ويخلقها إنساناً حياً يعرفه ويحادثه ويعيش معه!.

أما نحن الكبار فقد ضاعت منا القدرة على الحياة في "المعنى" ولم نعد نستطيع العيش إلا في "المادة"!... وقد انكمشت الحقائق في نظرنا؛ فلم نعد نبصر غير حقيقة الإطار الخارجي للأشياء، ولم يعد في مقدورنا أن ننفخ الروح في شيء!.. لابد لنا إذن من فنان ـ وما الفنان إلا إنسان احتفظ ببعض قوى الطفولة ــ ينسج لنا أوهاماً وأخيلة وصوراً، توسع لنا قليلاً من أفق حياتنا المادية الضيقة.

يقرع صاحب "الأراجوز" طبلته، وهو يعلم أنه سيجتمع حوله رهط من الفنانين الخالقين في صورة أطفال وصبيان!... ويعرض صاحب المسرح روايته، حاشداً لها خير المؤلفين والمخرجين والممثلين، وهو يوجس خيفة من أن يخفقوا في رفع جمهور الكبار، من حياتهم الأرضية إلى عالم المعنى والخيال!

شاهدت في عام 1936 رواية "فاوست" لجوته، يخرجها في "سالزبورج" المخرج العظيم "ماكس راينهارت" ... وقد رأى ـ إغراقاً في طلب الروعة ـ ألا يلجأ إلى مسرح أو مناظر أو

ستائر، بل شيد ـ بالحجر والآجر ـ مدينة بأكملها في سفح الجبل، هي المدينة التي تجرى فيها حوادث الرواية، في القرون الوسطى؛ بكنائسها الغوطية، وحاناتها، وبيوتها، ونافوراتها، وجعل الممثلين يتنقلون بينها كما لو كانوا يتنقلون في الحياة، والنظارة على المدرجات ـ في الهواء الطلق ـ يشاهدون... ثم حضرت بعد ذلك في "سالزبورج" نفسها رواية "الدكتور فاوست" لمارلو تخرجها فرقة "أراجوز" على مسرح للكبار... ولكن أي "أراجوز"؟!...

لقد كانت الدمى فيه بنصف الحجم الطبيعي، زاهية في ثيابها التاريخية... تتحرك في مناظر خلابة؛ من أشجار يانعة، وبيوت ومدن؛ تسلط عليها إضاءة ذات فن يحير العقول... لقد كانت الجحيم التي تردى فيها "فاوست" تكاد، من براعة الفن، تكون جحيماً حقيقية بنار ذات لهب، والقارب الذي أوصله إلى مملكة الموت يكاد يمخر في أمواج ذات هدير، والعفاريت بقرونهم، والزبانية بشوكاتهم!... فن لم يترك مجالاً لخيال مشاهد، ولم يعتمد على مخيلة متفرج... ولا عجب فهو يعلم أنه يتقدم إلى نظارة من الكبار!...

لونان من الفن شاهدتهما في موضوع واحد وأسبوع واحد: أحدهما لجأ إلى الوسائل الكبرى، والآخر لجأ إلى الوسائل الصغرى؛ الأول أراد أن يثير خيالنا بأكبر قدر من الحياة، والثاني بأكبر قدر من الصناعة، أولهما طرق باب تصورنا بما رآه يناسب حاضرنا، والآخر توخى أن يحرك مخيلتنا بما يذكرنا بماضينا!...

ولكن هذه الجهود المشكورة ـ وإن كانت قد منحتنا المتعة الفنية ـ لم تستطع أن تجعلنا نعيش في خيالها أكثر من لحظات: هبطنا من عليائها بهبوط الستار!...

لا يستطيع الإنسان أن يعيش طويلاً إلا فيما يخلقه، هو بنفسه داخل نفسه...

إن كل فنون الأرض اليوم، لتعجز عن أن تجعلني أرى ما كنت أراه في دمي "الأراجوز" الرخيص!...

وإن كل فرح الدنيا لا يثير في مشاعري ما كانت تثيره دقات طبلته المتواضعة وهو يقترب من حينا!..

مع أهل الموسيقى

1

فن الموسيقى في "مصر" كما عرفناه منذ ثلاثين سنة، كان يلمع في سمائه ثلاثة نجوم: "داوود حسني" و"سيد درويش" و"كامل الخلعي".

ولم تكن معرفتي وثيقة بسيد درويش، ولكن رواية غنائية لي، عرضت عليه، فطلب في تلحينها ستمائة من الجنيهات!... فرأت "الجوقة" أنه قد سأل شططاً؛ فسحبتها منه، وعهدت بها إلى "كامل الخلعي" الذي رضى بثلاثين!...

على أننا كنا نعيش في ذلك الجو الفني العجيب. الذي استطاع أن يخلقه "سيد درويش"!... كنا نتتبع آثاره الجديدة في كل مكان، ونعرف أحدث ألحانه ـ قبل أن تذاع ـ من فمه أو أفواه من التقطوها عنه، في ليلة من ليالي وحيه

المنهمر!.... على أني في ذلك الوقت كنت أكثر احتفاء بما يخرجه هذا الموسيقي المجدد، في النوع الجاد من "الأوبرا" و"الأوبريت". وإنه لمن المحزن أن نرى الجيل الجديد اليوم يصغي إلى هذا الكلام دهشاً!... لا يتصور كيف ازدهر هذا اللون من الموسيقى في الماضي، ومات في الحاضر؟!...

***

كانت أغاني "سيد درويش" وألحانه الشعبية تسري في الناس كالنار في الهشيم!... ولكني ما كنت أرى منه، أن هذا هو الذي يملؤه بالفخر؛ فقد كان تواقاً إلى الفن في صورته العليا!... وإنه لعجب أن يكون لمثل "سيد درويش" بثقافته البسيطة صورة عليا للفن!... أتراها غريزة الفنان الأصيل، تدفعه إلى البحث والغوص فيما وراء السهل والضحل من أشكال الفن؟!... ربما كان الأمر كذلك؛ فسيد درويش لم يكن بالفنان الذي يكتفي بالإلهام، ويقعد عن التحصيل!... لقد رأيت "سيد درويش" بعيني، يأتي معنا إلى "تياترو الكورسال" ليشاهد جوقة الأوبرا الإيطالية، تعرض "توسكا" و"مدام بترفلاي" لبوتشيني و"البلياتشو"

لليون كافللو!... فقد كانت "دار الأوبرا" في ذلك الوقت ترفا يستطيعه سائحونا، ولا تطيقه جيوبنا، وكان المسيو "دالباني" ـ صاحب "الكورسال" ـ باراً بالفقراء أمثالنا، من مجانين الفن؛ فكان يستقدم لنا فرقاً متواضعة، تغذينا وتعلمنا بقليل من النفقة!... ما من شك عندي في أن "سيد درويش" كان يرى من أسرار هذا الفن الأوروبي، أكثر مما كنا نرى وكان ينتفع، ويتمثل، ويهضم أضعاف ما كان يتهيأ لمثل بنيتنا الفنية العادية... وكان من أثر ذلك أن طمع في أن يصل بفنه إلى مرحلة التجرد الأعلى ـ التجرد من الشعبية، والصور المحلية ـ وأن يقدم موسيقى موسومة بطابعه وحده ـ لا طابع بيئته بالذات؛ فقال للمرحوم "محمود مراد" عندما قدم إليه رواية "البروكة" ممصرة عن الرواية الفرنسية "لاماسكوت": إنه لا يريدها في صورة مصرية ولا شرقية!.... ولكنه يريدها على أصلها؛ بجوها الفرنجي، وأشخاصها الأوروبيين؛ لأنه مقدم على محاولة جريئة لن يحيد عنها!... إنه يريد أن يفرض موسيقاه ـ بطابعها الخاص ـ على ذلك الجو الأجنبي!...

وتم لـه مـا أراد، وأخـرج هـذه الروايـة بفرقتـه الخاصـة، التي كـان أنشـأها أخيراً، واسـتأجر لها مسـرح "دار التمثيـل العربي" الذي كان مجاوراً لشارع "وجه البركة"!...

ولا أنسـى أبـداً تلـك الليلـة الـتي ظهـرت فيهـا "البروكـة" لأول مـرة؛ كانـت ليلـة انهمـر فيهـا المطـر ورعـدت السـماء، وامـتلأت شـوارع "القـاهرة" بالوحـل والمـاء!... ولكننـا ـ نحـن أنصار "سيد درويش" ومحبيـه وإخوانـه ـ مـا كنـا نشـعر قـط بمـا فعلتـه الطبيعـة مـن حولنـا!... إنـا نعـرف أن الطبيعـة عـدو الفنان: لأنها تغار منـه، وتعـده منافسـاً لها في الإبـداع ـ ومـاذا يهـم؟... لـو أن السـماء انطبقـت علـى الأرض في تلـك الليلـة لمـا فطنـا إلى مـا يجـري؛ فحبنـا للفـن كـان أقـوى مـن الطبيعـة ذاتها!... ورفع الستار عن "البروكة" أمـام عـدد مـن النظـارة لا يزيـد علـى الأربعـين أو الخمسـين، بمـا فـيهم الأنصـار والأصدقاء!... وجرت الألحان تصور مختلف المناظر والمواقف والعواطـف: مـن نشـيد الجيـوش الظـافرة مثـل لحـن: "امـلأ الكاسـات"... إلى قولـه: "الاحتفـال بالانتصـار"... الخ، إلى وصـف الريـف بدجاجـه وخرافـه الـتي تصـيح: "مـاء... مـاء" في لحن: "أحب خرفاني السمان" الخ... وغيرها مـن الألحـان الـتي

لا تسعفني الذاكرة الساعة بحصرها!... خرجنا من تلك الرواية في شبه ذهول!... وكان الليل قد انتصف، ولكنا لم نذهب إلى بيوتنا، أو نأو إلى فراشنا؛ فذاك عهد ولى ـ ما كنا نعرف فيه المضاجع قبل الفجر!...

***

جلسنا في قهوة ـ أو على الأصح "خمارة" ـ مجاورة لدار التمثيل العربي.. وما لبث "سيد درويش" أن أقبل علينا، مع الصديق المرحوم "عمر وصفي"... وقد نفض عنه ثياب التمثيل. وهو يقول: ما رأيكم؟...

لم يخطر في بال الفنان المسكين أن يسألنا عن رأينا في كساد الحفلة وخواء الصالة!... ولا خطر في بالنا أنه يسألنا في ذلك؛ فقد كنا ندرك أن الرأي المطلوب هو أجل من ذلك عنده وأسمى ـ لأنه كان يريد الإفلاس أو يكره المال؛ ـ بل لأن فرحة الفنان بفنه تبهره أكثر مما يبهره المال، وأن النشوة التي تبعثها خمرة الفن تذهب دائماً بلب الفنان في أول الأمر، فتذهله عن كل شيء!... أدركنا ما يريد فقلنا ـ

لست أذكر والله ما قلنا... ولكن الذي لا شك قد حدث هو أنه قرأ في وجوهنا الجواب: أنه قد انتصر!...

وفي اليوم التالي قابلت زميليه "كامل الخلعي" و"داوود حسني"، وأبديت لهما خامرني من تلك الرواية الرائعة، فهز كل منهما رأسه هزة أعرف مغزاها؛ ـ كانا هما من أنصار القديم، أو على الأقل كانا فيما يبدعان ـ من فن شرقي يجد مكين ـ يسيران في التجديد بحذر واحتياط؛ لذلك كان لهما في "سيد درويش" رأي: أنه في عرفهما ملحن، خارج على القواعد والأصول، والمعقول والمنقول!... وتلك هي التهمة الأبدية لكل مجدد جريء!...

على أني لا أعتقد أن "سيد درويش" كان يتعمد التجديد قهراً أو افتعالاً، ولم أسمعه يتحدث في ذلك؛ كما يتحدث أصحاب النظريات، أو قادة النهضات ـ ولكن التجديد عنده؛ فيما أرى، كان شيئاً متصلا بفنه، ممزوجاً بدمه!... لا حيلة له فيه... شيئاً يتدفق من ذات نفسه؛ كما يتدفق السيل الهابط من القمم!... كانت الألحان تتفجر منه؛ كأنها تتفجر من ينبوع خفي ـ حتى عليه هو؛ لقد سمعته، وسمعه بعض أصدقائنا يقول ذات يوم:

"أستطيع أن ألحن كل شيء: أستطيع أن ألحن الجرائد اليومية!..." نعم!... لقد أحس أن لا شيء يقف أمام نبع ألحانه المتفجر؛ لا النظم واجب له ولا الأوزان!... أي كلام عادي كان يستطيع أن يصب فيه لحناً يحييه؛ كما يصب ماء الحياة في العود اليابس!... عند ذلك فهمت لماذا كان يقول لي دائماً "كامل الخلعي": "زن لي كلامك وزناً آخر؛ حتى يستقيم مع اللحن الذي عندي"!... إن "كامل الخلعي" موسيقي متمكن، وهو ـ من غير شك ـ أرسخ قدماً في أصول الموسيقى من "سيد درويش"، ولكن أين له عبقرية هذا الأخير!؟... تلك العبقرية، أو ذلك السحر الخفي الذي ما مس كلاماً حتى قلبه نغماً تحار فيه العقول!.

ومع ذلك، لم يصب "سيد درويش" قدراً كبيراً من تقدير الناس، بل إنه كان يقابل أحياناً بالسخرية، كلما ظهر على المسرح بجسمه الضخم، وصوته الفحل!....

ولا أنسى يوم مثل البطل في رواية "شهرزاد" لقد حزنت وثرت، وأنا أرى الجمهور يستقبله بالنكات، وهو يرفع عقيرته ويغني: "أنا المصري كريم العنصرين..." لم يعرف الجمهور أن يقدر فيه صحة النغم قبل رخامة الصوت، ولم

تهذب بعد الحاسة الفنية للجمهور المصري؛ ليدرك أن صحة صوت الرجل هي في رجولته وقوته، لا في طراوته وحلاوته!... وأنا شخصياً كنت أطرب لصوت "سيد درويش" لأني ما فهمت الموسيقى قط إلا على هذا الوضع.

لا جدال في أن الثورة المصرية كان لها هذا الأثر في توجيه "سيد درويش" إلى الإشادة بالمفاخر القومية، في إطار من الصوت الصلب، والعواطف الملتهبة، والأداء القوي؛ كما كان لهذه الثورة فضل في كل ما اتسم به فن هذا الموسيقي من تجديد؛ فقد خاض أعوامها، شاباً متفتح القلب لكل ما تأتي به ـ في الأفكار والأحداث ـ من جديد... في حين أن كهول الموسيقيين في ذلك الوقت من أمثال "كامل الخلعي" و"داوود حسني" ـ ما تأثروا بالثورة، ولا أثروا!... وهل يستطيع أن يدرك أعاجيب الثورة، أو يشعر بحرارتها إلا الشباب؟!... لقد انكشفت لعيني وقلبي معجزة "مصر" عام 1919م ورأيت الثورة في كل مراحلها، تسفر عن روح خفية، باقية أبد الدهر، نابضة، تسعف "مصر" بين حين وحين. ظل هذا الشعور يلاحقني حتى سجلته في "عودة الروح"؛ فالمعروف أن الثورات لا ينطبع أثرها إلا على قلب جديد ملتهب، ولا يملك

مثل هذا القلب إلا الشباب في فورة شبابهم، لهذا كان "سيد درويش" ـ ابن الثورة ـ هو قلبها الجديد الملتهب الذي تأثر بها، وأخرج فناً قاد به الموسيقى الشرقية إلى أفق جديد.

2

ما من ريب في أنهم اليوم قليلون؛ أولئك الذين عرفوا المرحوم "كامل الخلعي". في أوج مجده الفني!... ومن ذا كان يستطيع أن يصاحب ذلك "الفنان العجيب"، بدون أن يتعرض لضحكات الضاحكين؟! ... لقد كان ذلك الموسيقي من سلالة أولئك "البوهيميين" الذين لا يعرف أحد: أعقلاءَهُمْ أم مجانين؟!... كان إماماً من أئمة فنه؛ وكان له في الموسيقى الشرقية كتاب ينم عن غزير علم، ورسوخ قدم؛ فقد عرف نضله الشيخ "سلامة حجازي"، فحباه بتقديره ـ وإن كان لم يسلم من شذوذه، فلقد صادفه ذات يوم، وقد طرح عوده وفنه، وحمل صندوقاً لمسح الأحذية، جعل يجوس به خلال القهوات والمشارب، فناداه الشيخ معجباً قائلاً: "جرى إليه يا سي كامل؟!" وأراد أن ينفحه مبلغاً من المال، يعينه على

عسر حاله، فقال الفنان وكأنه لا يعرفه: "قرش تعريفه واحد... ثمن المسحة!..." ولم يأخذ غيره، ومسح له حذاءه، ومضى ـ رافعاً رأسه، معتزاً بنفسه!...

أما أنا فقد عرفته 1923م؛ إذ كلفته فرقة "عكاشة" أن يلحن رواية لي.... فكان من الضروري أن ألقاه من حين إلى حين، وأن أصغي إليه، وقد وضع على رأسه "كلبوشا" من صوف، وارتدى معطفاً قصيراً مرقعاً فوق سروال من "عبك" ينتهي بقبقاب في قدمه من خشب، وفي صدره العود يضرب عليه بأنغام رائعة، لا يفسدها إلا صوته الأجش، الذي يقطعه سعال التبغ الرخيص ـ يخرج من حنجرته كأنه خارج من "ماسورة" خربة، في "ماكينة" طحين!... ولكن العجيب، أني كنت أطرب لذلك الصوت، وأرى كأنه يخرج من بلبل ذهبي الفم فضي الحنجرة!... حتى إذا انتهى من بعض الألحان، طرح العود وهب واقفاً؛ ليذهب معي إلى "التياترو" لتحفيظ الجوقة... فنهبط ذلك السلم ـ من منزله في حي "القلعة" ـ الذي كان يخيل إليّ في كل مرة أنه سينهار بنا في أثناء النزول؛ لوهنه، ورقة خشبه، وطقطقته، وأطيطه تحت أقدامنا الثقيلة، فنخرج إلى الطريق، وأنا أحمد الله في

سرى على السلامة والعافية، وألتفت إلى صديقي الموسيقي، فألاحظ العجب!... إنه ينزل ويسير معي في الشارع بعين الثياب التي كنت أحسبها ثياب المنزل... عجباً!.. أو يستطيع إنسان أن يمشي هكذا في الطريق؟!...وإلى أين؟... إلى "تياترو الأزبكية" في أهم شوارع "القاهرة" ولكن لا عجب من ذلك، فإنني لم أنزعج من منظره وقتئذ، ولم أخجل من مصاحبته!... إنه "كامل الخلعي" وكفى!... وليتنا كنا نذهب راكبين ـ بمنأى عن العيون ـ ولكنه كان يصرّ على المسير، فالمسافة في نظره قصيرة ـ إنه شارع "محمد علي" لا أكثر ولا أقل، ففيم ركوب "سوارس" أو "الترام"؟!...

هكذا كنا نسير؛ هو بثيابه التي كثياب الشحاذين، وأنا بملابس "الأفندي" الكاملة التي توحي بالاحترام. وما كنا مع ذلك نمضي تواً... إن "سي كامل" له أطوار؛ فهذا بائع "كيزان" صفيح، لزوم المطبخ أو الزير، فما أشعر إلا والموسيقي الذي يترنم بجواري بأجمل الألحان، قد وثب إلى البائع وصاح به فجأة، "بكم الكوزيا جدع؟"... وما يمضي قليل إلا و"كامل الخلعي" قد اشترى بكل ما معه نحو عشرة كيزان ـ ما يدري كيف يحملها ـ وقد ربطها له

البائع ووضعها فوق كتفه، واستأنفنا السير وأنا أقول له: "أنذهب بها إلى التياترو؟" فيقول على الفور: "وما له؟ وهو أنا سارقها؟".

وعندما أسأله عما دعاه إلى شراء كل هذا العدد، يجيب: "كلها منافع..."، ويقصّ عليَّ كيف أن كوز الحمام دائماً يضيع، فأقسم أن يشتري كل كيزان البلد حتى تبطل حجة أهل المنزل!... كلام معقول؛ إن فن "كامل الخلعي" كان يجعلني أرى كل تصرفاته معقولة، ولكن الأمر الذي لم أستطع أن أجد له سبباً معقولاً، هو ما حدث بعد ذلك!... لقد سرنا في شارع "محمد علي"، إلى أن وصلنا إلى ميدان "باب الخلق"، وعندئذ طلع علينا شحاذ ـ من أولئك الشحاذين الذين يضعون "الطرطور" على رؤوسهم، ويلبسون رداء مرقعاً بمختلف الألوان، ويحملون "المبخرة" النحاسية، يلقون فيها لكل قادم أو كل تاجر أو كل حانوت بما في جعبتهم من مستكة وقرنفل وعو وعتروت وعين العفريت وغيرها من أنواع البخور ـ وهم يبسملون ويحوقلون؛ ـ اقترب هذا الشحاذ صائحاً:

"أهـلا سـي كامـل"! وتصـافحا، ومشـى معنـا؛ كأنـه صديقنا، وما كدنا نسير إلى ميدان "العتبة" حتى لحق بنا زميل آخر بمبخرته، فصافح هو أيضاً وسلم وانضم، ومشينا إلى "التياترو" هكذا ثلاثة شحاذين بما فيهم "سي كامل"، يحمل كيزانه الصفيح بدل المباخر، وأنا رابعهم ـ لم أفطن إلى صفتي بينهم، ولم ألق بالاً إلى من قد يصادفني من معارفي وزملائي أهل الحقوق والقانون ـ وما هم قائلون؟... إنه الفن؛ ما كان شيء يعنيني ويبهرني مثل الفن وأهله!... كان لكلمة الفن في أذني وقتئذ رنين، دونه رنين الذهب في تيجان القياصرة، وبريق دونه بريق الجوهر في عروش الأكاسرة!... أي حياة تلك التي كنا نحياها في ذلك العهد؟!... حياة ما أرحبها وأعمقها وأجملها، في ذلك الإطار، من ورق "الكرتون" المزوق، ومناظر المسرح المبطنة بالخيش والقماش، تصدح في أرجائها الألحان والأغاني، وتسود الكلمات والمعاني، وترسل المصابيح أضواء، تخسف بجانبها الأقمار وتكسف الشموس!...

ذلك أن الفن هو حلم يعيش فيه الفنان!... هو وهم، له دولته وحدوده وقوانينه وعرشه وتيجانه!... لا يكتفي الفنان

بالحياة في هذا الوهم لنفسه؛ فهو إن فعل ذلك واكتفى به، لم يعد فناناً ــ بل سمي في الحال مجنوناً، وكان مقره مستشفى "المجاذيب"!...

ولكن الفرق الوحيد الذي أنقذ الفنان من هذا المصير، هو أنه نجح في أن ينقل إلى الناس وهمه... وأن يدخلهم دولته، وأن يخلق شخوصاً وهمية، يأنسون إليها كما يأنس، ويعيشون معها كما يعيش..

ما المجنون في بعض الأحيان إلا فنان، احتفظ بوهمه لنفسه، وعاش فيه وحده وما الفنان في بعض الأحيان إلا مجنون، استطاع أن يفرض وهمه على الناس، وأن يجعلهم يحبون هذا الوهم، وما ينتج عنه من مخلوقات، لا يملكون لها دفعاً، ولا عنها غنى ولا بعدا!...

لقد اشترى الفنان إذن خلاصه بهذا الثمن... لقد أشرك الناس معه في الاستمتاع بأوهامه وأحلامه؛ فكفوا عندئذ عن اتهامه بالجنون، وإلا اتهموا أنفسهم معه!... والناس منذ فجر التاريخ لا يمكن أن يعتبروا أنفسهم إلا عقلاء!...

الفن جنون، ولكن المجتمع ساهم فيه وأحبه ورعاه والفنان فنان، ما استطاع العيش في خلقه وحلمه، فإذا خرج

منهما فقد خرج من مملكته الذهبية؛ خروج المجنون من مستشفى الأمراض العقلية!...

غير أن المجتمع يستقبل الخارج الأخير بقوله: "عدت إلى نور العقل؛ لقد شفيت إذن... فحمدلله!" ويستقبل الخارج الأول قائلاً: "عدت إلى نهار العقل؛ لقد انطفأ سراج أحلامك، وخرجت من عبقريتك، إنا لله وإنا إليه راجعون!".

مع أهل التصوير

لست أعلم شيئاً كثيراً عن ذلك المصور... كل ما كنت أعرف عنه اسمه "أوتو" وأنه من أهل الشمال ـ النرويج أو السويد أو الدنمرك ـ وأن له لحية كثة شقراء، وأنه يحمل دائماً تحت إبطه لوحات غريبة الرسوم، فاقعة الألوان؛ فقد كان ينتمي إلى تلك المدرسة الفنية، التي أثارت فضول الناس في ذلك العهد، بما كانت تلجأ إليه من وسائل غاية في الإغراب، ونظريات غاية في الإغراق!.

كان هذا المذهب الفني الجديد هو "بدعة" الحرب العالمية الأولى؛ فلكل حرب ـ فيما يظهر ـ بدعة فنية تأتي في أعقابها، وتملأ "باريس" حديثاً عنها وضجيجاً... كان "الكوبزم" في التصوير هو "موضة" باريس في ذلك الحين، يتحدث الناس فيه حديث العارفين، وأغلبهم لا يعرف عنه

شيئاً، ولكنك لن تصادف واحداً لا يقول لك: "الكوبزم" طبعاً أحبه... "الكوبزم" هذا شيء جميل جداً... دعك من كل أنواع التصوير... تلك أشياء عتيقة ـــ ولكن "الكوبزم"!...

وكان هذا مصدر عذابي!

لطالما وقفت الساعات والأيام، أتأمل لوحات هذا "الكوبزم" وأضرب رأسي بيدي لأفقه ما فيها من جمال، وأتهم نفسي بالجهل تارة، وبالغباوة تارة، وبموت الشعور تارة، ثم أتحامل على ذهني المسكين، أرغمه على فهم أسرار الإبداع في هذه اللوحات، التي تصور (مثلثات) و(دوائر) و(مكعبات) و(مربعات)، داخل بعضها في بعض، وقد صبغت بالأحمر الكابي، والأزرق الزاهي، والأصفر الفاقع!... ثم أخرج من قاعات تلك المعارض الفنية أقول مع القائلين:

"جمال!... إبداع!... عبقرية!..."

***

لبثت على هذا الحال زمناً ـ وأنا أتألم؛ لعجزي عن إدراك كنه هذا اللون من الفن، وكان هذا الجهل مني بأمره سوط تعذيب، تلهبني به الأقدار أو قل ألهب به نفسي بيدي!... فماذا سيجري لي لو عرفت أو جهلت هذا "الكوبزم"؟

ولكنه جنون تلك المرحلة من الشباب!... لقد كانت كارثة الكوارث أن أجهل نوعاً من الفنون، أو فرعاً من المعارف! كان نهم "المعرفة" يكاد في ذلك الحين يفقدنا صوابنا.. كان أشد الألم على نفسي، أن أكتشف فيها قصوراً عن العلم والتحصيل؛ وكانت تلك النقود القليلة في جيبي تبذل، عن طيب خاطر، في كتاب قبل أن تنفق في طعام أو شراب...

***

فما كدت أبصر ذات مساء ذلك المصور "أوتو" ـ وكنت قد عرفته في إحدى قهوات "مونمارتر" ـ حتى تعلقت بذراعه، وقلت له:

هل لك في قدح من "البيرة"؟

ـ أين؟

ـ هنا في هذه الحانة الصغيرة...

ـ إذا رفضت فإني لست فناناً... أقصد فناناً مفلساً... أعني فناناً عبقرياً...

من مذهب "الكوبزم"!

ـ آه... "الكوبوزم"... هلم بنا!!.

وأدخلته إلى تلك الحانة الصغيرة، بجوار ملهى "الطاحونة الحمراء"، وجلسنا إلى خوان، وبادرت فطلبت له قدح "البيرة" ودفعت ثمنه الزهيد في الحال ـ قبل أن يفيق الضيف؛ فيكثر من الطلب، ويبهظ في النفقة. ورأيت أن أحتال في الكلام حتى لا أظهر له أني أسأله خدمة؛ فيستغل الفرصة، فقلت له بنبرة الحديث التافه العابر:

كنت اليوم في متحف "اللوفر"... أتدري ماذا فعلت طول الوقت؟... مررت أول الأمر بالقاعة المربعة، حيث وقفت لحظات، أتأمل لوحة "أعراس قانا" لذلك المصور البندقي القديم "بول كالياري فيرونيز"...

فصاح بي:

"فيرونيـز"؟... أتسـمى هـذا مصـوراً؟ لا يـا سـيدي! هـذا نقـاش مسـارح!... مـاذا رأيـت في "أعـراس قانـا" غـير أعمـدة قصـور وهياكـل، وسـور شـرفة مـن المرمـر، وجمـع محتشـد حـول موائـد؟!... هـذا منظـر مـن تلـك المنـاظر، الـتي ترسـم للتراجيديات على الكرتون والقماش!...

فلم أجادله... ومضيت أقول:

ـ ثـم ذهبـت أتأمـل لوحـة "المسـيح في القـبر"، للمصـور الفلمنكـي "فان دايك"...

فقاطعني:

"فـان دايـك"!... بمسـيحه المطـروح العـاري، إلا مـن تلـك الخرقة حول بطنه، وقد لوى عنقه وتدلى رأسـه، وتلك المرأة الـتي عنـد قدميـه، تشـبك يديها على صـدرها حزنـا!... وتلـك التي عند رأسه كالولْهَى، تشير إلى السماء بعينيها. يا له من مشهد مؤثر!... ولكنك تتأثر للحادث المؤلم لا دخل للتصوير هنـا!... "فـان دايـك" يعتمـد في لمس قلبـك، علـى عاطفتـك الدينيـة، لا علـى ريشـته وحـدها!... وهـذا يـا سـيدي لـيس بالتصوير!...

فلم أناقش، واستطردت:

ثم لفتت نظري لوحة المصور الفرنسي "كورو" عن الصباح، أو ما يسميه "ذات صباح"؛ تلك الأشجار الباسقة في الريف، وقد تنفست أوراقها بنسائم الفجر، والقرويون والقرويات من حولها يرقصون، ممسكة أيدي بعضهم بأيدي بعض؛ كأنهم من طيور تلك الأشجار الفرحة بالصباح!... لكأنك تلمس رقة هواء الصبح، تهب عليك من إطار اللوحة!...

فهز رأسه صائحاً:

"كورو"!... أتظنه بما ذكرت يحسب في المصورين؟... كلا يا صاحبي... أدرجه في الشعراء إذا شئت، ولكن إياك أن تسميه مصوراً!... الشعر شيء، والتصوير شيء آخر...

فلم أُمارِهِ، واستأنفت قائلاً:

ـ ثم صادفتني لوحة المصور "هوراس فرنيه" عن "معركة وجرام"... ونظرت إلى "نابليون" فوق حصانه الأبلق، يراقب من خلال منظاره الطويل المعركة المحتدمة، ودخان البارود

يغطى الأفق، وقواده العظام من حوله، يجذبون أعنة جيادهم الصاهلة الصاخبة!....

فقاطعني محتدماً:

أظنك ستقول لي أيضاً: إن "هوراس فرنيه" مصور!... لا يا سيدي... هذا كثير!... لك أن تقول إنه مؤرخ، فربما صدقت!... وإذا أردت الدقة فقل "مؤرخ مزيف"!... ولو كنت تعرف كيف يصور المعارك... هذا الرجل؟

...أقسم لك إنه لم يشاهد معركة في حياته، حتى ولا في الحي الذي يقطنه، بين صبية يلعبون "البِلْى"!.. وكل ما يلهمه، ويوحي إليه، وينقل عنه؛ ـ قد ذكره بنفسه في تلك الصورة عن "معمله"!... بضعة سيوف صدئة، ودروع قديمة مدلاة، على الجدار، وحصان هزيل لا يجد له علفاً ـ هو ذلك الذي تراه في لوحات معاركه، أبلق مرة وأحمر مرة، وأسود مرة!...

فلم أعارضه، ومضيت أحدثه عن لوحات للمصورين: "بوسان" و"جيروم بوخ" و"رافائيل"... وغيرهم، فانتظر حتى أفرغ في جوفه آخر قطرة من قدح البيرة، ثم وضعه على الخوان، وقال ساخراً:

ـ "بوسان" ـ هذا الذي يجب أن يدعى "نحاتاً" لا "مصوراً" ـ بأجسام عارياته الرخامية ووقفاتهن المتصنعة، وإيماءاتهن المترفعة؟!... هذا يا سيدي فن يقرب من "النحت"!... أما "جيروم بوخ" بنماذجه البشرية العجيبة الخيالية، فهو روائي!... أما "رفائيل"، بتأنقه في رسم يد "المادونا" وقدم الطفل؛ فقد بلغ القمة في "الرسم" لا في "التصوير"... ومن غيرهم؟... ستذكر لي "جروز" هذا الخطيب... و"ديلاكروا" هذا الأديب!...

فلم أر فائدة في استمرار الحديث معه على هذا النهج، وآثرت الدخول إلى قلب الموضوع؛ فقلت له:

وما التصوير إذن في رأي "الكوبزم"؟

ـ "الكوبزم" هو التصوير نفسه... هو كل التصوير... هو حقيقة التصوير!...

ـ كيف؟

ـ عجبا!... لا تؤمن بذلك؟

ـ أو من... أو من... ولكني أريد الاستزادة من الإيمان؛ ليطمئن قلبي!...

ـ التصوير ـ أي "الكوبزم" ـ يبنى على الحقيقة، لا على الوهم!... فلنفرض مثلاً أني أردت أن أصور دجاجة!... هل تظنني أصورها كما اصطلح الناس على منظرها وهيئتها، في وهمهم المجمع عليه منذ الأحقاب؟... كلا يا سيدي... إنما أصورها طبقاً لحقيقتها الهندسية!... ولأوضح لك ذلك بطريقة عملية... أحضر لي دجاجة!...

فحملقت فيه دهشاً مأخوذاً... وقلت:

ـ الآن... هنا؟ ...دجاجة.. حية؟...

ـ حية، مطبوخة... هذا لا يهم!...

ولم يمهلني، وأشار إلى "الجرسون"... فلما حضر، وجهه إلى حتى أطلب أنا له ما أراد، فخرجت من فمي الكلمة، ولا أدري والله كيف خرجت:

ـ دجاجة!...

فأسرع "الجرسون" يلبي، ثم عاد بفرش للخوان، وطبقين، وضع أحدهما أمام الضيف، والآخر أمامي، ثم ذهب ورجع بطبق معدني كبير فيه ورك دجاجة محمرة سمينة!... وأنا كالمذهول أشاهد ما يحدث وأعد ما في

جـيبي!.. فلمـاذا وضـع بيننـا ورك الدجاجـة، أدركـت أن لا مفر، وعزيت نفسي، وقلت: كل شيء يهون في سبيل المعرفة ـ ولـي نصيب في هـذا العشـاء على كـل حـال ـ ولكـني لم أكد أثوب إلى رشدي، حتى رأيت مصور "الكـوبزم" قد مد يـده بالشـوكة، ونقـل ورك الدجاجـة بأكملـها إلى طبقـه... وشرع يقول:

انظر!... ما هي الحقيقة الثابتة في أعماق هـذه الورك؟.. إنها على شكل "مثلث"... تلك هي الحقيقة الوحيدة.

ثـم رفـع السـكين، ومـزق جلـدها المحمـر وغـرز بـه الشوكة، وجعل يلتهمها التهاماً ـ وأنـا أنظـر إليـه، مشـاهداً متفرجاً!... في أعماق نفسي، بألم وأسى:

ـ "كـلا... هذه ليست الحقيقة الوحيدة!..."

ولم يفطن إلى ما بي.. ومضى يطعم ويتنعم... ويقول:

على أني أغشـك، إذا قلت لـك إن هـذه كـل نظريتنـا في التصـوير!... التصـوير، في مـذهبنا، فـن يجـب أن يسـتقل بوسـيلته، عـن كـل وسـائل الفنـون الأخـرى: فـلا ينبغـي أن يـرتكن علـى موضـوع؛ لأن الموضـوع مـن مسـتلزمات فـن

الشعر، ولا أن يقوم على شخصيات؛ لأن ذلك من مقومات فن الرواية، ولا أن يستند إلى بناء؛ لأن هذا من ضرورات فن العمارة، ولا أن يحاكي الأجسام الآدمية؛ لأن هذا من فن النحت، ولا أن يعبر عن مشاعر عاطفية؛ لأن هذا من فن الموسيقى!...

فقاطعته مستغرباً:

حتى الموسيقى!؟...

ـ الموسيقى لا يسمعها مصور إلا بعينيه؛ وإذا تكلم عن الأنغام فإنما يعني الألوان!... المصور الحق هو رجل ضرير الأذنين!... وسيلة التصوير الوحيدة التي يتميز بها عن كل وسائل الفنون هي: اللون!... الألوان هي وسيلة التصوير وغايته... لا ينبغي للمصور أن يقص على الناس موضوعات، ولا أن يمس عقولهم ولا قلوبهم، ولكنه وجد ليخاطب حاسة واحدة فيهم: بصرهم!... التصور شعر العين، وسيلته وغايته: اللون...

***

وكان قد أتى وحده على طبق الدجاجة، ومسح فمه الملوث بدهنها بالمنشفة البيضاء، فالتفت إلي قائلا:

ولأوضح لك ذلك بطريقة عملية: أحضر لي طبق "سلطة"!...

ولم ينتظر هذه المرة حتى آذن للجرسون؛ بل ناداه وطلب إليه؛ كأنما قد أمسى مفهوماً أنه يتناول العشاء كاملاً، على مائدتي... وجاء "الجرسون" بطبق "السلطة" فنظر المصور "الكوبست" إلى "السلطة" وقال:

انظر إلى هذا البنجر الأحمر، والخس الأخضر، والجزر الأصفر... ما هي الحقيقة الثابتة فيها؟... هذه الحقيقة...

- عرفتها يا سيدي!.. عرفتها جيداً!..

قلتها مقاطعاً، وأنا ألمح يده تمتد بالملعقة والشوكة الخشبيتين إلى أعماق الطبق، ولكنه مضى يقول:

دعني أخبرك!... هذه الحقيقة، يضيع معالمها المصور الكلاسيكي وهو يصور هذا الشكل... إنه يعني بالدقة في رسم الجزرة، وورقة الخس، وقطعة البنجر، وهذا أمر لا

أهمية له ـ أما نحن أتباع مذهب "الكوبزم" فلا نحفل بهذه الحذلقة التي تخفي الجوهر!... يكفي عندنا أن نبرز حقيقة هذه الألوان الثلاثة: الأحمر والأخضر والأصفر... هذا هو التصوير!...

وفرغ من محو طبق "السلطة" وحده... والتفت إلى منصة "البار، فأبصر عليها وعاء كبيراً، تعرض فيه فاكهة نضرة طازجة... فقال لي:

إن المصور "سيزان" له طريقته في تصوير التفاح، وقد أثارت طريقته جدلاً واهتماماً في حينه... ولكنك قد تسألني عن طريقة "الكوبزم"...

ـ طريقة عملية... ما في ذلك من شك!... ولكن لا داعي لمعرفة تصوير التفاح... خير لي أن تحادثني ونحن سائران في الشارع؛ فلدي موعد هام، والوقت متأخر، والمشي مفيد للهضم، ـ بالنسبة إليك!... يا "جرسون"!...

وناديت خادم المطعم، وأنا ناهض، ودفعت له كل ما كان في جيبي من فرنكات أجراً لهذا العشاء، فنهض صاحبي المصور مرغماً، وخرج معي إلى الطريق، وهو يقول لي:

التصـوير هـو "الكـوبزم"... و"الكـوبزم" هـو التصـوير... هل عرفت الآن؟!...

ـ عرفت كـل شـيء والحمـد للّه... وقـدرتي لا تحتمـل أن أعرف أكثر من ذلك!..

الوداع يا سيدي!...

مع أهل الأنشاد

لن أنسى ذلك الشخص العجيب، الذي قابلته ذات ليلة في تلك الحانة من حانات "مونمارتر"!.. في ذلك العهد البعيد، الذي كنت أرتاد فيه تلك الحانات!... كانت حانة صغيرة الحجم، حقيرة الشأن، لا يشرفها غير جوارها من ذلك الملهى الشهير "القط الأسود"!... ولقد علمتني الأيام ألا أزدري المشرب المقفر؛ ففيه غالباً الخدمة الطيبة، والنفقة الزهيدة، وهو خير مأوى لأوقات الضنك وأيام الفقر، في أواخر الشهر!... ذهبت، ووقفت على "بار" الزنك، وطلبت قدحاً من النبيذ الأبيض، مع طبق من المحار البرتغالي الأخضر!... والتفتُّ حولي، فلم أجد في المحل غيري، وغير رجل إلى جانبي في "البار" على رأسه قلنسوة، عوجها على طريقة أوباش الحي الخطرين!... وهو يرفع كأسه ويرشف منها

جرعات كبيرة، ويضعها، ثم يرفع عقيرته بغناء ـ أو على الأصح ـ بإنشاد شيء؛ كأنه شعر:

"من أنا؟...

شاعر؟... ربما!..

لا... لأن يراعة نفسي ما سطر يوماً ـ وما تسطر ـ غير كلمة واحدة: جنون!...

من أنا؟..

مصور؟... ربما!...

لا..

لأن ريشة نفسي ما صبغت ـ وما تصبغ ـ غير لون واحد: سواد!..

من أنا؟...

موسيقي؟... ربما!...

لا... لأن أوتار نفسي ما عزفت ـ وما تعزف ـ غير نغم واحدٍ؛ شجون!...

من أنا... إذن؟...

لقد نظرت من خلال "عدسة" إلى قلبي؛ لأعرف من أنا؟... فإذا أنا... "بهلوان" يتأرجح على حبال نفسي!..."

***

ورفع الرجل كأسه، وأفرغ ثمالتها في جوفه... وأرسل إليّ ابتسامة من يتساءل: ما قولك أيها الزميل؟!...

فرددت إليه الابتسامة بخير منها... وقلت له:

ليس من الضروري عندي أن تكون شاعراً، أو مصوراً، أو موسيقياً... أو حتى "بهلواناً"... المهم عندي هو ألا تكون لصاً!...

ـ أمعك نقود؟

ـ لو كان معي نقود لذهبت إلى "القط الأسود"... ولكن أوباشي الحي، ولصوص "مونمارتر" من أصحاب القلانس المعوجة، لا يفرقون بين الموسر والمعدم، قبل أن يضعوا السكين في ظهره، والأيدي في جيبه!...

ـ لا أظن أن في منظري ما يدل على أني لص ولا في منظرك ما يدل على أنك ضحية... أغلب الظن أننا من فصيلة واحدة!.. يا "جرسون"! املأ قدح الزميل...

ولم يدع الساقي لي وقتاً للاعتراض؛ فسرعان ما امتدت يده بالزجاجة، يسكب منها في قدحي... فشكرت الرجل، ثم قلت له:

هذا الذي كنت تنشده مؤثر جداً!... كيف تقول إنك لست شاعراً وهذا الشعر جيد؟!...

ـ إنه ليس لي؛ بل للشاعر الإيطالي "بلازيتشي"!...

ـ يخيل إلي أنه خارج من أعماق نفسك أنت؛ فما من شك في أنك تحس كل كلمة فيه!...

ـ هذا حق!...

ـ أتشعر بكل هذا القلق حقاً؟... لكأني بك مكلوم الفؤاد، وأنت تتساءل هكذا عمن تكون؟!.

ـ اسمع!... اسمع!...

ورفع كأسه... ورفع عقيرته بالإنشاد:

"تعال!... ولنلق بقاربنا في نهر النبيذ!...

ولنقذف بآلامنا في روح الخمر؛ الجديد منه والمعتق!...

هات لي كأساً من نبيذ... في لون الورد ورائحة المسك...

وإذا أردت الشمس في منتصف الليل؛

فاطرح النقاب عن بنت الكروم؛ بوجهها المورد المحموم!...

إياك إياك يوم أموت؛ أن تضع في التراب جثماني!...

بل احملني إلى الحان، وضعني داخل الدن!...

***

وعجبت لهذا الشعر، واستروحت منه نسيماً آتياً من بعيد!...

فقلت للرجل:

أنت القائل لهذا؟...

ـ لا، بل الشاعر الفارسي "حافظ"!...

ـ هنا في "مونمارتر" أسمع هذا الشعر!.. ومن؟ منك أنت؟... من أنت؟

ـ ألم تسمعني الساعة ألقي هذا السؤال على نفسي؟...

ـ ألست فناناً؟..

ـ ألم تسمعني أتلقى الجواب عن ذلك الآن؟...

ـ إنك على كل حال رجل مثقف!...

ـ وما نفع ذلك لقلبي؟!...

ـ ماذا تصنع في الحياة؟...

ـ أحب!...

ـ أقصد عملك في الحياة؟!...

ـ أحب!...

ـ وحبيبتك؟...

ـ لها شعر غزير كغابة، ووجه شاحب كنجم، وجسم نحيل كطيف... بهذا الشعر الغزير، والوجه الشاحب، والجسم النحيل، كيف كانت تستطيع العمل بيديها، والسعي إلى رزقها؟... لقد رأيت أيسر الأمور لها أن تبيع شفتيها... القبلة بكذا... وما علمها أحد أن هذا قبيح!... ولقد قبل الملجأ طفلها، أما هي فماتت في آلام الوضع، وهي تخرجه للدنيا!... ويا لها من صيحات، كانت تطلقها في فراش المستشفى، ومن حولها الممرضات والأطباء في الأردية

البيض!... يا له من صراخ، كصراخ الدابة في المجزرة، لتعطي لحماً... وتعطي دماً!... والآن، هي بلا حراك، فوق سرير الجميع، في دار الجميع!... وهي لن تصرخ بعد الآن، ولن تصيح... أشلاء آدمية رثة دامية؛ أشلاء امرأة خلقة مهلهلة، لا تصلح حتى للوطء بالأقدام!...

ولكنها مع ذلك قد أدت واجبها كامرأة!... واجبها كما فهمته، وكما قدرت عليه... أن تحمل في بطنها جنيناً تسعة أشهر، وأن تمنح الوجود روحاً جديداً... هذا هو الجوهر: أن تعطي "الحياة" وهي تبذل فيها "الموت" ثمناً!... في نظر الله، وفي نظر البشر، قد أدت هذه المرأة ما عليها من حساب!...

***

وسكت الرجل بعد أن قال ما قال، بصوت حزين النبرة، عجيب الإلقاء، كئيب الرنين. وانحنى على كأسه؛ كأنما يخفي الفجيعة المعلقة بأهدابه في صورة عبرة، خيل إلي أنها سقطت، على الرغم منه؛ في شرابه، وامتزجت بخمره... وتمثلت لي مأساة الرجل واضحة جلية وأدركت

مغزى الشعر الذي كان ينشده منذ قليل، وسر التساؤل القلق عمن يكون؟!... وعما يحسن في الدنيا، وعما يجيد؟...

حتى انتهى القول في أمره إلى أنه "بهلوان" يترجح على حبال نفسه... وما هو في الحقيقة كما بدا الآن لي ـ إلا مشنوق، يترجح على حبال قلبه!... وفهمت: لماذا يريد أن يلقي بقارب حياته في نهر النبيذ، راجياً الغرق فيه بآلامه؟...

نعم!.. لم يبق عندي شك فيما يعذب الرجل!...

وتملكني حزن شديد من أجله، ولم أدر ما أصنع لأخفف عنه!... لقد كان ليأسه ومحنته جلال، يسخف معه كل مقال ـ كان الصمت خير ما ينبغي لي وله.

فتركته وفؤادي يتقطع ألماً لحاله، حتى فطن إلى أمره، فرفع رأسه؛ كمن يفيق من سكر، ودفع ثمن ما شرب وما طلب لي، وحياني بإشارة خفيفة، ومضى خارجاً من ألحانه بخطى ثقيلة؛ كخطى من يشيع جنازة، ولبثت أنظر إليه وهو يمضي ونبراته تطن في أذني، حتى اختفى عن عيني، ولم أر لي مقاماً في الحانة، فانصرفت بعده، وبي رغبة في البكاء، فمشيت في الطريق أنشج، وأمسح دموعي بمنديلي، حتى مررت بملهى "القط الأسود"، فقلت لنفسي:

"أدخل؛ لأرفه عن نفسي، وأزيل عنها الكآبة!... ولقد تعشيت؛ فلن أطلب فيه غير قدح من القهوة السوداء بلا لبن، وليكن ما يكون!..."

دخلت... وجلست مستخذيا إلى خوان صغير متواضع في طرف المكان، ليس مما يتهافت عليه!.. وقلت: من يدري؟ قد يقع في نصيبي أحد الساقين الظرفاء، يرق لحالي، فلا يعاملني معاملة الأثرياء!... وملهى "القط الأسود" لا يشابه غيره، من ملاهي "مونمارتر" وصناديق ليلها!... فالبضاعة التي كان تعرض فيه ليست أجساد الحسان؛ بل ثمرات القريحة والظرف والبيان!... كان الساقون و"الجرسونات" يحملون للزبائن الطلبات، وهم مرتدون ـ لا ثياب الخدم ـ بل ثياب أعضاء المجمع الأدبي الفرنسي، في "التشريفة" الرسمية؛ بلونها الأخضر ووشيها الذهبي المقصب... حتى إذا غص المحل ـ وأكثر رواده من جلة أهل "باريس" أدباً وفضلاً وثقافة وظرفاً ـ ظهر المغنون والشعراء والمنشدون، وتتابعوا الواحد تلو الآخر، يغنون الأغاني القديمة والحديثة، ويلقون الشعر الجيد والطريف من القديم والحديث!... ولقد كان

لهـذا الملـهى أثـر في الأدب الفرنسـي، ومـن بـين منشـديه وشعرائه خرج في الأدب والفن أئمة وأعلام!...

***

طفقـت أصـغي إلى المنشـدين، وقـد بـرزوا تباعـاً يلقـون قصـائد مـن شـعر: فيـون، وبـودلير، وفرجيـل وكيـتس، وبترارك ودانونزيو... الخ ويغنون أغنيات من القرون القديمة، ومن وحي الساعة... ويحكـون نـوادر ظريفـة، وكلمـات لبقـة طريفـة ــ إلى أن جـاءني "جرسـون" في ثيـاب "الأكاديميـة" انتزعني من إصغائي ليسألني طلبي!...

ـ فقلت له بصوت المتوسل:

ـ باسم الشعر والأدب، أطلب قدحاً من القهوة، بلا بنٍ ولا سكر!.... فأنا الليلة حزين على زميل مسكين!...

ـ ماذا جرى له؟

ـ شنق في حبال قلبه!...

ـ وترجح فيها "كالبهلوان"؟...

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ قلتها كالمرتاع عجباً!...

فأشار "الجرسون" بإبهامه إلى مقدمة المكان... وغادرني ماضياً إلى عمله يحضر القهوة، فنظرت حيث أشار؛ ـ فإذا بي أبصر منشداً، قد ظهر يقول بصوت، أعرف نبرته ورنينه وإلقاءه:

من أنا؟...

شاعر؟... ربما...

ومضى في القصيدة حتى أتمها، ودخل في القصيدة التالية: عن نهر النبيذ وقارب آلامه، والدن الذي سيجعله قبره ومرقده، ففرغ منها، وولج في قصة الحبيبة؛ ذات الشعر الغزير، والوجه الشاحب، والجسم النحيل!... تلك التي استصعبت العمل بيديها، وآثرت العمل بشفتيها، فرواها بصوته المتهدج المؤثر الحزين، حتى ختمها وقال: "إنها للشاعرة آدانجرى"!... فصفق الحاضرون طويلاً، وانحنى هو للجمهور طويلاً، ولست أذكرها: هل صفقت له مع المصفقين، أو صفقت لغفلتي؟... كل ما أذكر هو أني نهضت على قدمي، وتقدمت نحوه حتى يراني، وأنا أصيح:

"مرحى!... مرحى!..."

فلمحني، وعرفني وانحنى شاكراً، مبتسماً، غامزاً لي بعينه!... واختفى وقد انتهت "نمرته" وتركني أجرع قهوتي السوداء، وأندم على دموعي، التي ذرفتها من أجله!...

الباب الرابع
الأدب والـــــــدين

الدين والأدب، كلاهما يضيء
من مشكاة واحدة...

السماء هي المنبع

هنالك صلة ـ في اعتقادي ـ بين رجل الفن ورجل الدين، ذلك أن الدين والفن كلاهما يضيء من مشكاة واحدة، هي ذلك القبس العلوي، الذي يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان... وإن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو، الذي يغمر نفس الإنسان، عند اتصاله بالأثر الفني... من أجل هذا، كان لابد للفن أن يكون مثل الدين، قائماً على قواعد الأخلاق.

وهذا رأيي!... ولكنه ليس رأي كل المشتغلين بشؤون الفن.

فلقد اشتد الجدل من قديم بين طائفتين؛ طائفة تقول: إن الفن ينبغي له أن يكون أخلاقياً، وطائفة تقول: إن الفن يجب أن يتحرر ـ حتى من الأخلاق؛ لأن الجمال في الفن ينبع

من الإتقان، وأن الإجادة ـ في تصوير الدمامة والرذيلة ـ لا تقل فضلاً عن الإجادة في تصوير الحسن والفضيلة!... هذا صحيح... وإني لأشد الناس تمسكاً بحرية الفن، وإدراكاً لقدسية هذه الحرية، ولا أتصور فناً لا يصور الرذيلة، كما يصور الفضيلة، ولا يبرز القبح؛ كما يبرز الحسن!... وإن الدين أيضاً ـ في تنزيله ـ يصور لنا رجس المشركين، وإثم الكافرين، وقبح الأشرار والمفسدين؛ كما يبرز لنا فضل المؤمنين وإحسان المحسنين، ولكن المقصود ليس حرية التصوير، فهذه مكفولة في الفن، ملحوظة في الدين؛ إنما المقصود هي ذلك الإحساس الأخير، الذي ينقله الفن والدين إلى النفوس!...

ما من ريب في أن الإحساس الأخير، الذي ينقله الدين إلى النفوس ـ مهما يكن لون الصورة، ونوع التصوير ـ هو إحساس أخلاقي.

فهل هذا هو واجب الفن أيضاً؟ أو أن الفن حر حتى في إحداث الأثر الذي يريد؛ غير مقيد حتى في إقرار المشاعر غير الأخلاقية في نفوس الناس؟...

يقول "شوبنهور": إن النية لا قيمة لها في الأثر الفني... أي أن نيات الفنان الصالحة أو الطالحة لا تقدم ولا تؤخر في القيمة الفنية لعمله...

ويقول "جويو": إن الروح الأخلاقي عند الفنان كعبقريته يجب أن ينبعا معاً وفي وقت واحد من أعماق طبيعته.. وإن الفن غير الأخلاقي هو على كل حال أحط مرتبة؛ حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة... ذلك أن الفن العالي ليس ذلك الذي يثير في النفس أحر المشاعر وأعنفها فحسب. ولكنه ذلك الذي يثير فيه أكرم المشاعر وأرحمها. إن خطر الفن يرجع إلى تلك القدرة العجيبة فيه تلك التي يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته، ويستلبك إعجابك بصوره. وإن العطف والإعجاب يعديان كالمرض. فإذا أبدع الفن في تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط، وحملك بهذا الإبداع على أن تعطف على الانحلال وتعجب بالتدهور؛ فإن مجتمعاً بأسره يمكن أن تسري فيه العدوى عن طريق هذا الفن.

ما مهمة الفن الحق إذن؟ أهي أن يقف في المجتمع واعظاً ومرشداً وهادياً إلى سواء السبيل؟...

من المجمع عليه أن الوعظ والإرشاد ليسا من وظيفة الفن؛ لأن وظيفة الفن هي أن يخلق شيئاً حياً نابضاً، يؤثر في النفس والفكر.

ما هو نوع هذا التأثير؟... هنا المسألة!...

إن نوع التأثير هو الذي يحدد نوع الفن؛ فإذا طالعت أثراً فنياً ـ قصيدة أو قصة أو صورة ـ وشعرت بعدئذ أنها حركت مشاعرك العليا، أو تفكيرك المرتفع؛ فأنت أمام فن رفيع!... فإذا لم تحرك إلا المبتذل من مشاعرك، والتافه من تفكيرك؛ فأنت أمام فن رخيص.

هنالك سؤال آخر: ما مصدر هذا التأثير في العمل الفني؟... أهو الأسلوب أم اللب؟... أهو الشكل أم الموضوع؟...

إن الأثر الفني الكامل في نظري، هو ذلك الذي يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع!... وقلما يحدث هذا إلاّ عن طريق السمو في اللب والأسلوب؛ لأن ضعف "الشكل" وسقم "الأسلوب" يحدثان في النفس شعوراً بالقبح والضيق والاشمئزاز، وهذا ينافي الشعور بالجمال، والتناسق، والانسجام!...

شأن الفن، هنا أيضاً، شأن الدين... فما من رجل دين، يثير في نفسك إحساساً علوياً حقاً؛ إلا إذا كان في طريق حياته، مستقيم السلوك، سليم الأسلوب!... بغير ذلك يختل التناسق بين الغاية والوسيلة، وبهذا الاختلال يداخل النفس شعور الشك في حقيقة رجل الدين...

لو علم رجل الفن خطر مهمته، لفكر دهراً قبل أن يخط سطراً!... ولكن الوحي يهبط عليه، فيسعفه ـ ومعنى هبوط الوحي أن شيئاً ينزل عليه من أعلى شأنه في ذلك شأن المصطفين من أهل الدين!... وهل يمكن أن يهبط من أعلى إلا كل مرتفع نبيل؟...

للدين وللفن... السماء هي المنبع!...

الماء الحي

"... وكان لابد له أن يجتاز "السامرة".... فأتى إلى مدينة في "السامرة" يقال لها "سوخار"، بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه... وكان هناك بئر يعقوب... فإذا كان "يسوع" قد تعب من السفر، جلس هكذا على البئر...

فجاءت امرأة من "السامرة" لتستقي ماء... فقال لها "يسوع":

أعطيني؛ لأشرب!...

لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة، ليبتاعوا طعاماً...

فقالت له المرأة السامرية:

كيف تطلب مني لتشرب، وأنت يهودي، وأنا امرأة سامرية؟!

لأن اليهود لا يعاملون السامريين...

أجاب "يسوع" وقال لها:

لو كنت تعلمين عطية الله، ومن هو الذي يقول لك: "أعطيني لأشرب"؛ ـ لطلبت أنت منه، فأعطاك ماء حيا!..

قالت له المرأة:

يا سيد!.. لا دلو لك، والبئر عميقة؛ فمن أين لك الماء الحي؟... ألعلك أعظم من أبينا يعقوب، الذي أعطانا البئر، وشرب منها هو وبنوه ومواشيه؟!...

أجاب "يسوع" وقال لها:

كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً، ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه، يصير فيه ينبوع ماء، ينبع إلى حيوات أبدية..."

طالعت هذا القول في إنجيل "يوحنا" ونحن على أعتاب عام جديد من مولد "يسوع"... وتساءلت: كم من البشر انطفأ فيه ذلك العطش، ونبع فيه ذلك الماء الحي؟!.. ما من ريب أن العدد قليل: ذلك أن ملايين العطشى كثيرون في كل جيل!... إن لكل إنسان، بين جنبيه، بئراً عميقة، ولقد

رأيت من الناس من يلقي في بئره دلوا من ذهب؛ فلا يجد الدلو في القرار غير نضوب وجفاف!... ورأيت منهم من يلقي في بئره دلوا من ذكاء؛ فلا يجد الدلو في القرار غير حصى مرصع، وحجارة مرصوفة!...

أين الماء الحي؟... وبأي دلو يوصل إليه؟...

إنه موجود ـ ليس في كل النفوس، ولكنه ينبع في النفس التي تلقت بركات السماء!... وقد لا تشعر هي بوجوده، وقد لا يشعر بذلك أيضاً الناس المحيطون بها؛ لأن هذه النعمة أسمى من أن تراها كل العيون...

هناك أمثلة كثيرة، ولكن أبسطها، وأقربها إلى فهم العامة؛ مثل ذلك النجار الذي كان يعمل في حانوته طول النهار، فإذا جاء المساء ذهب بربح يومه إلى داره، فتعشى هو وعياله، ثم رفع عقيرته بالغناء!... فغنى، وأنس وطرب بعض ليله، ثم نام بين أسرته نوماً هنيئاً هادئاً لذيذاً حتى الصباح، وكان له جار غني يرى هذه الحال منه، ويتعب ويقول في نفسه: "كيف يكون لهذا لنجار على فقره مثل هذا الصفاء... وأنا الغني، لا أنام ولا أهمد، ولا يطفئ المال عطشي للثراء!..." ثم عزم على أن يدبر للنجار أمراً.. فألقى

في داره الحقيرة بكيس مملوء بالذهب، وجعل يترقب ما يحدث، وعندئذ حدث العجب؛ فقد انقطع الغناء، الذي كان يرتفع مرحاً من دار النجار، وسكت القلب المغرد السعيد، ولغط الذهن المفكر المكدود، وذهب النوم الهنيء، وحل السهاد الطويل، وشغل النجار، نهاره وليله، بأمر ذلك المال الذي هبط عليه: كيف ينتفع به، ويستغله، وينميه؟... ومرت الأيام والليالي، وقد خيم على دار النجار ذلك السحاب، الذي يخيم على دار جاره الغني!... سحاب الهم الذي لا يزول؛ ـ لقد بدأ الجري الدائم خلف السراب!... لقد غاض النبع من البئر، وجاء العطش الذي لا ينطفئ أبداً!...

***

درس "يسوع" ليس للأفراد وحدهم؛ بل للدول أيضاً!... هذه الحروب ـ التي لا ينطفئ سعيرها ـ إنما هي علامة عطش!... متى تؤمن الدول القوية أن هذا العطش، لا يطفئه الطغيان ولا السيطرة؟... كل دولة تشرب من بئر "السيطرة" تعطش أيضاً!...

أجـراس "المـيلاد" تـدق في أديـارك وكنائسـك، أيتهـا الدول الكبرى، فلا تغتري ولا تظني "القنابل الذرية" تطفئ عطشك؛ ـ بل ثقي أن الذي يطفئه إلى آخر الأزمـان، هـو ذلـك الماء الحي، الذي تحدث عنه السيد المسيح!...

الحقيقة الكاملة

يـروي الفيلسـوف الصـيني "لـي هتـز" هـذه الأسـطورة المملوءة بالحكمة:

فوق تل من تلال غابة نائية، كان يعيش رجل شيخ، مع ابن له وجواد... ذات صباح، هـرب الجواد، واختفى، فأقبل الجيران على الشيخ. يعزونه في نكبته بفقد جواده.. فقال لهم الشيخ:

ومن أدراكم أنها نكبة؟...

فصمتوا، وانصرفوا واجمين!... ولم تمض أيام حتى عاد الجواد إلى صاحبه من تلقاء نفسه، لا وحده، بل مصطحباً معه عديداً من الخيول البرية.. فعاد الجيران إلى الشيخ، فرحين مهنئين بهذا الغنم الموفور، وهذا الحظ السعيد، فنظر إليه الشيخ بهدوء، وقال:

ومن أدراكم أنه حظ سعيد؟...

فسكتوا مذهولين، وانصرفوا متحيرين، ومرت الأيام!... وجعل ابن الشيخ يروض الخيول البرية، فامتطى منها جواداً عنيداً، فسقط من فوق صهوته إلى الأرض، فكسرت ساقه، فرجع الجيران ـ مرة أخرى ـ إلى الشيخ محزونين، يبثونه ألمهم لما وقع لولده، ويعزونه في هذا الحظ العاثر!...

فقال لهم الشيخ برفق:

ومن أدراكم أنه حظ عاثر؟....

فانصرفوا صامتين!... ومضى العام، وإذا حرب تقوم، وجند الشباب، وأرسلوا إلى الميدان: فلاقى أكثرهم الحتف إلا ابن الشيخ، فإن العرج الذي بقدمه، أعفاه من الذهاب إلى الحرب، وأنقذه من ملاقاة الموت!...

***

إلى هنا تنتهي قصة الفيلسوف الصيني، ولو أنه استرسل فيها لما فرغنا من تعاقب السعد والنحس على الحادث الواحد؛ ذلك أن لكل شيء نهاره وليله، يدوران

حولـه بغـير انقطـاع، ولكـن الإنسـان، في نظرتـه القصـيرة، وذاكرته الضعيفة، لا يرى الحادث إلا في حلقاته المنفصلة، وأجزائه المتقطعة، ونتائجه المؤقتة، ومؤثرته المفاجئة، فعينه لا تستطيع أن تشمله في جملته، لأن جملته ممتدة في الغد وعين الإنسان لا ترى الغيب!...

***

ولـو اسـتطاع إنسـان أن يشـمل بنظرتـه الأمـس واليـوم والغد، وأن يتتبع حادثاً واحداً أو رجلاً بعينه؛ لرأى العجب!.... فهـذا الغـني الـذي يملـك الملايـين، سـيرى أموالـه قـد بـددها وريـث، وهـذا الوريـث سـيكون لـه أولاد فقـراء، ومـن هـؤلاء الفقراء يخرج واحد ينشئ ثروة، وهكذا دواليك: يأتي المال من العدم، ويذهب المال في العدم؛ ويولد من السعد نحس، ومـن الـنحس سـعد! سـاقية لا تكـف عـن الـدوران، ولا تقـف طـول الزمـان... لـيس هنـاك في حقيقـة الأمـر حـظ زاهـر ولا عاثر؛ لأن الساقية الدوارة لا تبقي أحداً في موضعه، ولا شيئاً في مكانـه!... إن مـا نسـميه "الحـظ" لـيس إلا وقـوف نظرنـا المحدود، على وضع من الأوضاع، في وقت من الأوقات، وإن

فرحنا أو بكاءنا لهذا الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية؛ ـ شأننا في ذلك شأن المشاهد لقصة تمثيلية!... إن يضحك أو يبكي لكل ما يصيب البطل، من دون أن ينتظر ختام الرواية!... لعل أداة الشعور والإدراك فينا، قد جعلت على هذا التركيب المناسب لحياتنا القصيرة؛ فنحن نأخذ كل حادث يمر على أنه البداية والنهاية، لا أنه الحلقة في سلسلة طويلة!...

***

إن الإنسان الذي أعطى الحكمة، ليس ـ في حقيقة الأمر ـ إلا ذلك الذي أعطى العين، التي ترى الأشياء في جملتها، لا في جزء منها، وفي تعاقبها، لا في وقوفها!... الأديب العظيم أيضاً له، تلك العين التي ترى الحقيقة الكاملة في حياة البشرية؛ تلك العين التي تبصر الساقية في دورانها.. وهذا ليس بالأمر الهين!... إنه للبشر من أصعب الأمور؛ من أجل هذا كانت الحكمة في الأرض نادرة؛ لأن الحكمة وحدها هي التي ترى الساقية وهي تدور... هي التي ترى الحقيقة الكاملة!...

ثورة العقل

جاء في أساطير الصين أن قرداً صعد إلى السماء، وجعل يثرثر ويفاخر، ويتيه ويختال، ويزعم أن "البراعة" قد تجسدت فيه، وأن "الحذق" ليس إلا بعض معانيه، وأنه أحق الكائنات بمكان علوي، لا يدنيه فيه مخلوق!... وظل يحدث في السماء من الصياح والضجيج، ومن الثورة والاحتجاج، ما حمل "بوذا" على النظر في الأمر، فدعا القرد وقال له:

إذا كنت حقاً بارعاً ـ كما تقول ـ فاقفز من راحة يدي اليمنى؛ فإن استطعت ذلك؛ فإني أضعك فوق عرش من تلك العروش، التي تتوق إليها... وإن عجزت عن ذلك؛ فإني أعيدك إلى الأرض؛ لتكفّر فيها عن ذنبك طوال السنين، قبل أن تأتي إلي مرة أخرى بثرثرتك!...

سمع القرد ذلك، وقال في نفسه:

"بوذا" هذا ليس إلا مغفلاً!... إني أقفز مائة قدم، وراحة يده ليست أطول من شبرين، فكيف يعجز مثلى عن القفز خارجها..؟!

وبدت الاستهانة والسخرية على وجهه ولم يجب، فقال له "بوذا":

ألم تسمع ما عرضت عليك؟ ما جوابك؟...

أأنت جاد فيما عرضت؟... أأنت واثق من أنك ستعطيني ما وعدت؟...

- بالطبع...

- وأنا قبلت!...

قالها القرد باعتداد وتَحَدٍّ باطمئنان!.. عند ذاك بسط "بوذا" يده اليمنى، فبدت للقرد في حجم ورقة "اللوتس"، واعتلاها وبدا له أنه يملأ راحتها، فانتفخ قليلاً، وملأ بالهواء صدره، ثم جمع كل قوته، وقفز... وإذا الريح من حوله تكاد تصفر لسرعته، ومرق في الفضاء كالسهم، والريح بأجنحتها تحمله حتى وقع آخر الأمر عند مكان،

أبصر فيه خمسة أعمدة ضخمة قائمة، تكاد تمس السحاب، فتأملها في سموقها قائلاً في نفسه: "لقد وصلت بلا شك إلى آخر العالم! لم يبق علي إلا أن أرجع إلى "بوذا" وأسأله وعده وأطالبه بالعرش!... لكن مهلاً... يجب أن تتخذ الحيطة مع "بوذا" حتى لا يقوم بيننا جدال، فلنترك هاهنا برهاناً يدل على أني بلغت هذا المكان...

ودنا من العمود الأوسط، وبال عند قاعدته، ولم يجد غير هذا أثر يتركه، مبالغة في التكبر والاعتداد والغرور...

ثم قفز عائداً من حيث أتى، حتى استقر فوق يد "بوذا" اليمنى، وصاح به صيحة الظفر:

لقد ذهبت كما ترى ورجعت، وإنك لتستطيع الآن أن تعد لي العرش، الذي يليق بي ويرضيني...

فقال "بوذا" بهدوء:

أيها القرد الثرثار!... إنك لم تغادر راحة يدي طول الوقت...

فصاح القرد محتجاً:

ما هذا الكلام؟... إني ذهبت إلى نهاية العالم، حيث أبصرت بعيني خمسة أعمدة شاهقة تلمس السحاب، وقد توقعت تكذيبك هذا، فتركت هناك أثراً لي... تعال معي، وأنا أجعلك ترى بعينك!...

فقال "بوذا" بهدوء:

لا حاجة بي إلى ذلك... انظر في قرار كفي اليمين، فانحنى القرد ينظر بعينيه البراقتين.. فأبصر عند قاعدة الإصبع الوسطى في كف "بوذا" بلل ذلك الأثر الذي أحدثه!...

***

ذلك القرد عندي، ليس سوى رمز "للعقل البشري"!... إنه بارع نشيط، قفاز براق، وقد استطاع ـ بسرعة حركاته ـ أن يوجه أنظارنا إليه وحده، وأن يعلق اهتمامنا به، وأن يقصر آمالنا عليه؛ بل لقد نجح أحياناً في أن يوهمنا أنه، هو وحده مصدر الحركة الكبرى في الوجود!... ولقد كشف لنا حقاً، ببريق عينيه، عن أشياء أثارت فينا العجب، فتبعه منا خلق كثيرون، به وحده يؤمنون، لا يرون إلا ما يريهم،

ولا يصدقون إلا ما يضع عليه أيديهم، وقد تملكه الغرور، فصاح يقول: أنا كل شيء... ولا وجود لغير ما أكشف عنه... وفي قدرتي أن أثبَ إلى كل القمم!...

فتجلت "القدرة الإلهية" قائلة:

أيها العقل أو القرد!... في قدرتك أن تَثِبَ إلى الشجر، ولكنك لن تثبت إلى السحب!...

فقال العقل:

سأثب قريباً إلى ما فوق السحاب؛ لقد عرفت سر الذرة، وأنا في طريقي إلى بلوغ القمر، والوثوب إلى بقية الكواكب، والإحاطة بكل ما في الكون!... فمدت "القدرة الإلهية" يدها قائلة للعقل:

تحيط بكل ما في الكون أيها الأحمق؟.. انظر إلى كفي هذه، إنك مهما تقفز ـ فلن تستطيع أن تبلغ نهايتها، أو تخرج عن محيطها، أو تدرك ما حولها، وما خارجها!.. إني أتحداك أن تحاول...

فقال العقل: وأنا قبلت التحدي...

وحدثته نفسه أنه لا بد منتصر!...

فما تكون هذه اليد أمام ضوء فلسفته وبريق علمه؟ يكفي أن يسلط عليها عينيه المشعتين بالعلم والفلسفة: ليكشف حدودها ومعالمها!... وجمع كل قواه، وقفز بكل ما في ساقيه: من منطق واستقراء، وتجاريب واستنتاج، واستعان بكل ما في يديه من تصور وتخيل، وتفكير واستغراق، ووثب وثبة، ظن بها أن بلغ فعلاً حدود الكون!...

ولكن "القدرة الإلهية" قالت مشفقة به:

لا تجهد قواك عبثاً. ولا تحاول المستحيل إنك لم تزل في كفي، نقطة حائرة، ونطفة عاجزة.. لك أن تقفز ما شئت؛ لأني خلقتك هكذا قفازاً، وضعت في طبيعتك القفز والوثب، ولا ينبغي أن تخرج عن طبيعتك التي ركبتها فيك، ولا أن تكف عن حركتك التي فطرتك عليها؛ فإنك إذا جمدت وخمدت، خالفت سليقتك التي أردتها أنا لك، متحركة متجددة، ولا يجوز لك أن تقف عن الوثب، فتعارض إرادتي!... ولكن إياك أن تغتر بمدى قفزاتك، وتتوهم أنك بالغ بها ما لا يمكن أن تبلغ؛ فتعرض نفسك لذل الخيبة، ومرارة اليأس، وسخرية المقدرين لنشاطك!...

وأومأت "القدرة الإلهية" إلى شيء لا يكاد يرى في قرار كفها، وقالت للعقل:

انظر... أترى إلى هذا الأثر السائل الزائل؟.. إنه كل ما أحدثت أنت: من علم، وفكر، وفلسفة، وتجربة، وخيال، وتأمل ـ منذ مبدأ العصور!...

فنظر "العقل" متضائلاً إلى آثاره النفيسة الخالدة، فرآها في كف "القدرة الإلهية" ليست أكثر من ذرة بلل فان متطاير، أقل شأناً من ذلك الأثر الذي أحدثه القرد عند إصبع "بوذا".

معجزة الدين

لماذا لا يظهر في هذا العصر أنبياء؟ سؤال يطرحه كثيرون، ولا يتلقون عنه جواباً مقنعاً.. لقد ظهر في هذا العصر من يدّعي شفاء الأمراض، ومن يزعم الاتصال بأرواح الموتى... ولكن قلما يظهر من يدّعي النبوة... لماذا؟ السبب ولا شك هو أن المتنبئ يعلم أنه سوف يطالب بالإتيان بمعجزة، وما هي المعجزة التي تستطيع أن تقنع الناس في عصرنا الحاضر؟...

كان المتنبئون فيما مضى لا يحتاجون إلى عناء كبير في خداع العقول؛ لأن أبسط الأشياء، كان يكفي أن يُعدَّ في نظر البسطاء عجيبة تحيّر اللبّ؛ بل إن بعض مدّعي النبوة، إذا أحرجوا، كانوا يلجؤون إلى الفكاهة، يفلتون بها من أعواد المشانق وأسياف الجلادين!...

والكتب القديمة مملوءة بنوادرهم؛ فهذا الرجل ادّعى النبوة في أيام "هرون الرشيد" فلما مثل بين يديه وسأله عما يقال عنه، أجاب بكل جرأة:

نعم!... إني نبي كريم...

- أي شيء يدل على صدق دعواك؟

- سل عما شئت. وكان يقوم حول عرش "هرون الرشيد" مماليك مرد الوجوه، فقال لمدّعي النبوة، وهو يشير له بإصبعه إليهم:

- أريد أن تجعل هؤلاء المماليك المرد بلحى!...

فأطرق المتنبئ ساعة، ثم رفع رأسه وقال:

كيف يحل لي أن أجعل هؤلاء المرد بلحى، وأغيّر هذه الصورة الحسنة؟..

أنا أجعل لك إذا شئت أصحاب اللحى مرداً في لحظة واحدة..

فضحك منه "الرشيد" وعفا عنه.

وتنبأ شخص في عهد "المأمون" فطالبوه بمعجزة، فقال:

أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب...

فقالوا: رضينا...

فأخرج الرجل حصاة معه وطرحها في الماء فذابت.

فقالوا: هذه حيلة، ولكن نعطيك حصاة من عندنا تجعلها تذوب.

فقال: وهل قال فرعون لموسى: لا أرضى بما تفعله بعصاك، فدعني أعطك عصا من عندي تجعلها ثعباناً؟..

فضحك "المأمون" وتركه، وإذا رجل آخر يأتي إليه ويدعي أنه "إبراهيم الخليل" فقال له "المأمون": إن "إبراهيم" كانت له معجزات...

فقال الرجل: وما معجزاته؟

ـ أُضرِمت له نار، وأُلقيَ فيها، فصارت عليه برداً وسلاماً... ونحن نوقد لك ناراً ونطرحك فيها، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك...

فقال الرجل: أريد واحدة أخف من هذه..

فقال له "المأمون": فمعجزات "موسى" إذن؟...

ـ وما معجزاته؟...

ضـرب بعصـاه البحـر فـانفلق، وأدخـل يـده في جيبـه فأخرجها بيضاء..

هذه عليَّ أصعب من الأولى!...

ـ فمعجزات "عيسى"؟...

ـ وما هي؟..

ـ إحياء الموتى!

وهنا صاح الرجل:

مكانكم.. قد وصلت!...

وأشـار إلى القاضـي، "يحيـى بـن أكـثم" الواقـف بجـوار "المـأمون" وقـال: أضـرب لكـم رقبـة القاضـي، وأحييـه لكـم السـاعة...

فقال القاضي "يحيى" من الفور:

أنـا أول مـن آمـن بـك وصـدق؛ فاضـرب عنـق مـن لم يؤمن!...

فضحكوا منه.

وجـاء في زمـن "المـأمون" أيضـاً مـدعٍ للنبـوة.. فقـال لـه "المأمون":

أريد منك بطيخاً في هذه الساعة!...

فقال المتنبئ: أمهلني ثلاثة أيام.

فقال "المأمون": أريده الساعة.

فقـال الرجـل: مـا أنصـفتني يـا أمـير المـؤمنين... إذا كـان اللّه تعـالى ـ الـذي خلـق السـموات والأرض في سـتة أيـام ـ مـا يخرجه إلا في ثلاثة أشهر؛ أفلا تصبر أنت على ثلاثة أيام؟..

تلك كانت مشكلة المتنبئين في الماضي: المعجزة!... أما اليوم فإنه لو قام رجل يدعي النبوة... وقال للناس: انظروا، ثم مـدَّ يـدَهُ إلى القمـر فخلعـه مـن موضـعه في الفضـاء وصـرّه في منديله: كأنه بطيخة، وسار به متنقلاً في أرجاء العالم.. فما الذي يحدث؟

يحـدث أن يهـب علمـاء الأرض لفحـص هـذه الظـاهرة، فيقـول الفلكيـون: إن هـذا العمـل الخـارق قـد دل علـى أن فكرتنـا القديمـة عـن الأجـرام السـماوية كانـت فكـرة خاطئة، وأن المراصد والمجاهر ما كانت تسجل وتظهر غير

أوهامنا مكبرة مضخمة، وأن القمر، في حقيقته، ليس أكثر من فقاعة كبيرة من "الغاز" الخفيف، استطاع أن يجذبها رجل، في تكوينه خاصية، ينجذب إليها ذلك النوع من "الغازات" ـ بهذه السرعة الهائلة، التي أدت إلى انكماش حجم القمر الأصلي فصار في حجم البطيخة...

ويقول علماء الكيمياء: إن هذا الحدث يستلزم إعادة النظر في تركيب المواد التي تتألف منها الأجسام السماوية؛ فهي لا شك قابلة للتحول السريع من الصلابة إلى الرخاوة، ومن الضخامة إلى الضآلة ـ وما من شيء يمنع رجلاً ذا طبيعة خاصة من أن يجري هذا التحول.

يقول علماء النفس: إن الأمر لا علاقة له بالقمر ولا بغيره، وإن الرجل ذو قدرة نفسية، وقوة مغنطيسية، يستطيع بهما الإيحاء على نطاق واسع؛ فهو منوّم هائل للجماعات، ويكفي أن يقول في الناس، حتى لو كانوا علماء، إنه قد محا بيده وجود الشمس من لوحة السماء؛ كما يُمحى الرسم من فوق السبورة، حتى يصير هذا الزعم في النفوس حقيقة ملموسة، وتَمَّحي الشمس فعلاً في نظر الناس جميعاً على اختلاف مراتبهم وعقولهم، وهذه ظاهرة كانت تكشف في

بعض الأشخاص من حين إلى حين، ولكن على نطاق ضيق، وقدرة محدودة، ولا شيء يمنع من ظهورها في شخص على نحو يخرج على كل قياس. ..

وهكذا يمضي كل عالم وباحث في كل فرع: يفحص ويُمَحِّص، ويفترض ويستنتج، وتكثر المجادلات الفنيّة، وتتلاطم النظريات العلمية، ولكن ما من واحد من ـ هؤلاء العلماء، يأخذ نبوة الرجل على سبيل الجد، أو يحاول التسليم بوجود صلة مباشرة بين هذا الرجل و"الله"!...

لم تعد المعجزة، في عصرنا الحاضر، دليلاً على النبوة؛ فنحن في عصر المعجزات، تتعاقب كل عام؛ كأزياء السيدات ـ فمعجزة القنبلة الذرية، التي ظهرت في عام مضى أصبحت قديمة في هذا العام!...

والموسم القادم كفيل بأن يطلع علينا بمعجزة جديدة، يستقبلها الناس بالعجب لحظة، ثم يعتادونها وينصرفون عنها، وينتظرون غيرها في الموسم التالي... وهكذا دواليك ـ لم يعد عالمنا الحاضر يطالب النبي بمعجزة؛ فلو أتى بها لأدخلها العلم معمل بحثه ـ من دون أن يعتبرها برهاناً على أنه مرسل من الله!...

عصرنا الحاضر خليق بأن يعفي النبي من المعجزة، التي تثبت شخصيته: فلماذا لا يظهر المتنبئ إذن؟... وقد أزيلت من طريقه العقبة الكبرى؟!..

لا يظهر؛ لأنه سيطالب بأصعب معجزة وهي: "الشريعة"!...

تلك الشريعة السماوية الإنسانية في آن ـ التي تصلح للناس كافة، ويكون فيها صلاح الناس كافة؛ في آخرتهم ودنياهم، وفي سمائهم وأرضهم!... كيف تنزل هذه الشريعة، بدون أن تكون تكراراً لما سبقها من شرائع؟...

لابد إذن من شيء جديد!... ولابد أن يكون الله قد أراد ذلك فعلاً... كل معجزات الأرض قليل إلى جانب "المعجزة العظمى" وهي "الديانة" التي يفجرها الله من نوره؛ فيتبعها أفواج البشر مبهورين، شاعرين أنها سكبت في شراييهم، ومزجت بدمائهم إلى يوم الدين!...

الإيمان بالحياة

في إحدى المصحات فتاة، قاتلت الموت حتى انتصرت، وهي الآن في طريق الشفاء، تجلس الساعات الطويلة من فترة النقاهة تقرأ وتفكر وتتأمل!... وهي ـ فيما يبدو ـ قد فقدت بعض الإيمان بالحياة، وخيل إليها أن الأفق ملبد بالظلام؛ فهي تمد يديها تلتمس النور!... إنها كسفينة غالبت الأمواج، وقارعت الأنواء، وخرجت من زوبعة الليل ـ بعد أن كاد يطويها اليمُّ ـ تتمايل وتئن؛ باحثة عن الهداية في شعاع منارة، أو خيط فجر!...

اتجهت إلي؛ لأدعم إيمانها، وأبدد حيرتها، وكان الواجب أن أجيبها في رسالة خاصة؛ فالأمر يعنيها وحدها، ولكن خطابها الحامل عنوانها ضاع مني، ووقعت أنا في حيرة من أمري، لا أدري: أأسكت عنها أم أخاطبها في

كتاب؟! واخترت الحل الأخير؛ لأني خجلت أن أصم أذني، واقبض يدي عن نفس، تتخبط في الشك، وتطلب الغوث!.

أيتها الفتاة!.. أتدرين أين المنارة التي تهديك إلى الإيمان بحياتك؟... هذه المنارة قائمة بين جنبيك... إنها قلبك!..

هذا القلب، الذي ظل ينبض في أحلك ساعاتك؛ كما ينبض محرك السفينة في أعنف ساعات العاصفة ـ هذا القلب ـ لماذا استبسل هكذا؛ دفاعاً عن الحياة؟... لماذا لبث يدق دقات؛ كأنها صرخت في وجه الفناء، يفزعه بها، ويردّ على أعقابه؟... لماذا يسير بخطواته المنتظمة، أو المضطربة الليل والنهار؛ لا تهمد له حركة، ولا تخمد له نبضة، ولا يخرس له لسان؟... إنه حارسنا ضد الموت... إنه على حصن حياتنا الديدبان!...

قلبك يذود عن الحياة، ويناضل عنها نضال البطل؛ لأنه يؤمن بالحياة... إنما الذي يشك هو عقلك ـ هو تفكيرك ومنطقك ـ هو ذلك الشيء المصطنع فينا... ذلك الشيء الذي اخترعناه بأيدينا...

أما القلب المؤمن بالحياة، الحارس لها، الذائد عنها، بدون أن نتدخل في عمله بأذهاننا؛ فهو ذلك الجزء الأصيل فينا ـ ذلك الجزء الذي وضعه الله!...

لا يستطيع عقلنا؛ لحسن الحظ، أن يصدر أمره إلى القلب، فيوقف نبضاته؛ كما يصدر أمره إلى الأيدي والأقدام، فيوقف حركاتها...

لا أحد، غير الله، يستطيع أن يصدر أمره إلى القلب!...

ولقد أمر الله قلبك أن يصمد للمحنة فصمد، وما دمت قد انتصرت على الموت، فلماذا لا تنتصرين على الحياة؟!...

ما الذي يخيفك من غدك؟... أشباح ربما كانت تتصاعد من جوف كتبك ومطالعاتك وتأملاتك!... ليس أقسى علينا من خيالاتنا!.... ليس أفتك بنا من أيدينا وصنع أيدينا، وليس أرحم بنا من يد الله وما خلق وأبدع!... نصيحتي إليك، أن تتركي الكتب برهة، وتتأملي الطبيعة!... استيقظي مع الفجر، واستنشقي نسماته، وأصغي إلى العصافير، وهي تفتح أعينها، وتترك أعشاشها، وتقف قليلاً فوق الأغصان المرصعة بالندى تنفض ريشها، وتسقسق وتنشر أجنحتها، وينقر بعضها البعض مداعباً،

ويفـرّ بعضـها مـن بعـض ملاعبـاً!... كـلـها غبطـة بـالفجر، وكلها فـرح بالحيـاة؛ لا يقعـدها عـن ذلـك سـحب ملبـدة، ولا جـوٌّ مطـيرا!... إنهـا تحتفـي بـالفجر في اليـوم المشـرق، واليـوم المكفهر،وتحتفـل بوجودهـا، إذا صـفا الأفـق، وإذا أظلـم بالضباب!... لكأنها أنشودة الحياة تطير في الجو، صادحة منذ مطلع النهار، تلقـي في سمع القلوب اليقظة المؤمنة، ما يملؤها تفاؤلاً بالوجود واستشاراً!...

أيتها الفتاة!... هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك!...

لا تلتمسي المعونة عند مفكر، ولا عند عالم، ولا عند فيلسوف!...

بـل التمسـيها عنـد.. عصـفورا!.. ذلـك المخلـوق الصـغير، الذي وضعت فيه قدرة اللّه؛ إيماناً بالحياة!...

الباب الخامس
الأدب والعلـــــــــم

مـا أعجـب العلـم، إذا تـراءى
لعين الأدب!...

باب العلم المغلق

كلما رجعت بالذاكرة إلى أيام حداثتي، لاحت لي أمور غريبة، من ذلك أني لم أكن معنياً بالأدب وحده؛ فأنا أذكر اليوم جلياً، أني في الثامنة عشرة من عمري كنت أقرأ "هربرت سبنسر"!... ولست أدري: ما الذي كان يعجبني من هذا الفيلسوف، وما الذي استطعت أن أحصل منه، في مثل تلك السن؟... وهل هي المصادقة التي أوقعته في يدي، أو هو الزهو بأن أقرأ لمفكر، كان يملأ أسماع الدنيا في ذلك الوقت؟... كل ما كنا نعرف عن "سبنسر" يومئذ، هو أنه مؤسس الفلسفة التطورية في "إنجلترا"... ولم أقرأ له بالطبع مبادئ التطور، في علوم الأحياء، والنفس، والاجتماع؛ بل اكتفيت بعلم الأخلاق!.. وهذا أقصى ما يحتمله عقل شاب في الثامنة عشرة... ومع ذلك فإن ذاكرتي الآن لا تستطيع أن

تخبرني: أفهمته حقاً كما ينبغي أن يفهم؟... من المستحيل أن أكرّ راجعاً بعمري إلى الوراء كل هذه الأعوام؛ لأعيش تلك اللحظات التي كنت أطالع فيها مثل هذه الكتب، وأراقب عملها في رأسي، وأسجل أثرها في نفسي!... ولكن... ما جدوى ذلك؟... فلأكن قد عجزت عن فهم "سبنسر"، وليكن ما فهمت منه غير ما قصد، وليكن ما حصلت منه أضأل مما يجب ـ هنالك حقيقة لا شك فيها: هي أن بذرة، قد ألقيت في نفسي من كل ذلك، دون أن أشعر... ومضت الأعوام ـ بعدئذ بالفعل ـ على نحو آخر، شغلت فيها بألوان أخرى؛ من الكتب، والفن، والأدب!... وإذا بي في شبابي ـ وأنا على أبواب الثلاثين ـ يقع في يدي عالم آخر، هو "لا مارك" مكتشف القوانين الأساسية لتطور الكائنات الحية، قبل "داروين" بخمسين سنة!... ما الذي أوقعه في يدي... هذا أيضاً؟... أهي المصادفة أم الصيت المدوي؟... ليس صيته قطعاً؛ فإن اسم "لا مارك"، لم يكن من الأسماء المعروفة إلا في محيط الخاصة من العلماء!... قرأت له ـ قبيل الثلاثين ـ رأيه في العادة الموروثة، وتكوين الغرائز، وتطور العضو تبعاً للوظيفة، قبل أن أقرأ "أصل الأنواع" الذي كان قد ذاع

وشاع، حتى كاد يصبح في "أوروبا" من الكتب المقروءة بين عامة المثقفين؛ فإن "داروين" من الوجهة العلمية، جاء متمماً لنظرية "لامارك"؛ بأن أضاف إليه نظرية الاختيار الطبيعي، وبقاء الأصلح، في العراك من أجل الحياة!.. ولكنه من حيث التأليف، قد وضع كتابه هذا بأسلوب سائغ، يمتع الأديب الذي ليس له بالعلم صلة، ولا إلى النظريات رغبة!... ليس بعجيب على الإطلاق أن يعجب أديب "بداروين" ولكن العجيب أن يقع لأديب هذا الاتصال بثلاثة من الفلاسفة والعلماء، في مراحل مختلفة من حياته، ويتضح له فيما بعد، أن أولئك الثلاثة هم أنفسهم أبطال نظرية التطور في العصور الحديثة!...

أهي المصادقة؟... وما هي المصادقة؟.. أتراها، كما يقول "هنري بوانكاريه" العالم الرياضي؛ مجموعة الأسباب المعقدة الخفية عن إدراكنا، التي تؤدي إلى نتيجة مقصودة بعينها؟.. لست أدري... كل ما أعرف، هو أني في ذلك الوقت كنت أكتب رواية "شهرزاد"، ومن ينعم النظر فيها يجد فكرة تطور الإنسان ـ لا على نحو يؤيد التطور المطلق في خط مستقيم ـ بل التطور المحدود في دائرة مفرغة؛ كدائرة

الأجرام العظمى والصغرى في أفلاكها السماوية والذرية... فهل نستخلص من هذا أن هناك قدراً، يدفع الشخص إلى قراءة ما سوف يلزم له في عمله؟... أو أن طبيعة الشخص، هي التي تميل به إلى هذا اللون أو ذاك؛ من ألوان الغذاء الفكري؟... ليس من السهل الجواب، وإن كنت أعتقد أن البذرة الأولى، التي ألقيت في نفسي منذ الحداثة؛ قد فعلت فعلها في الخفاء، وإذا الحنين إلى ذلك النوع من الكتب يعاودني من حين إلى حين؛ ـ بل لقد بلغ بي الأمر حداً قد يدهش البعض؛ فأنا أجد اليوم عسراً في قراءة القصص، وأجد اللذة في مطالعة كتاب علمي ـ على أن الصعوبة عندي، هي في أن أعثر على كتاب في صميم العلم، من تأليف عالم يستطيع أن يكتب؛ فإن أكثر العلماء لا يستطيعون أن يجلوا أفكارهم إلا في نطاق معادلاتهم الرياضية، ومصطلحاتهم الفنية التي لا يقدر على متابعتهم فيها غير العلماء... أما أولئك الذين يبسطون العلم تبسيطاً سطحياً، في كتب مقروءة للناس؛ فلا أرى لهم قيمة فكرية كبرى بالنسبة إليّ!... بقي أولئك الذي أعنيهم، وأحب أن أقرأ لهم، وهم في الغالب من طراز العلماء المطعمين

بالفلسفة، أو الفلاسفة المتصلين بالعلم؛ يتخذون من العلم مادة تفكير وتأمل ــ لا موضوع بحث فني في معمل ــ ويفرغون نتائج تفكيرهم في كتابات، نستطيع في أغلب الأحوال أن نتابعهم، إن لم يكن في مسالكها، فعلى الأقل في مراميها!...

ما أعجب العلم، إذا تراءى لعين الأديب!...

إني لأسائل نفسي أحياناً: كيف استطاع العلماء أن يطلعوا على أعاجيب الكون، دون أن ينقلبوا أدباء؟... أما الأدباء فلا ينبغي أن يطلعوا على هذه الأعاجيب إلا بقدر، وإلا انقلبوا مجانين!...

قل الروح من أمر ربي

جاء في أخباء السيرة النبوية، أن "النضر" و"عقبة" أقبلا على رؤوس "قريش"، في حي من أحياء "مكة" صائحين:

يا معشر قريش!... قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين "محمد"؛ فقد أخبرنا أحبار يهود أن نسأل عن شيء أمرونا به، فإن أخبركم عنه فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل منقول، فروا فيه رأيكم!...

فلما جاء "محمد"، تقدم إليه "النضر" سائلاً:

يا محمد!... أخبرنا عن الروح: ما هي؟

ففكر النبي لحظة، ثم قال:

أخبركم بما سألتم عنه غداً...

وتركهم وانصرف مطرقاً، وسار في سبيله مفكراً، وجاء الغد ومضى، وتعاقبت الأيام والنبي ساجد عند غار حراء، يتأمل ويفكر على غير جدوى؛ حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا "محمد" غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها، ولا يخبرنا بشيء!... واشتد البلاء على النبي، فصاح مستغيثاً بربه: أى رب!... إليك أشكو بلائي.. أى رب!... ابعث لي وحيك! لقد سألوني عن الروح ولا أعلم بم أجيب.. أى رب!... أنسيتني؟... اللهم إني لفي بلاء، اللهم إني لفي بلاء!...

وعند ذلك، هبط "جبريل" بالآيات:

﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نسيا... ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا... ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾.

***

إني أجد دائماً في هذا الحادث سمة من سمات العظمة في النبي؛ فهو قد فكر في المسألة تفكيراً صادقاً خلال تلك الأيام الطويلة، وقلبها على وجوهها، ولم يهتد فيها بنفسه إلى جواب؛ فهو لم يكن بالنبي الذي يبيح لنفسه الكذب على الناس، فيخترع لهم جواباً بارعاً يسيراً يجوز على عقولهم الساذجة في تلك الأزمان؛ ـ ولكنه أخذ الأمر مأخذ الجد، وحاول في الغار حل المسألة، فلما هاله إعجازها استنجد بربه، فسمع منه ذلك القول الحكيم!...

على أن موضع الدهشة عندي هو أن "محمداً" في عصره وبيئته، قد رأى ببصيرته المسألة في إعجازها، بنفس العين التي يراها بها علماء العصر الحديث!... إني لم أدهش "لجوته" يوم قال عن الروح قولاً مماثلاً في قصته "فوست"!... فجوته قد مارس علوم النبات والتاريخ الطبيعي، ودرس من قوانينها ما وضعه أمام هذا الإعجاز وجهاً لوجه... إن مسألة الروح لا يمكن أن تبدو أمراً معجزاً للطاقة البشرية حقاً إلا أمام رجل علم، غاص، بكل ما أُعطيَ للإنسان من ملكات مفكرة في أعماق الأبحاث النظرية والعملية معاً.. وحتى رجل العلم المغلق في أبحاثه، المخدوع بالنتائج الأولى البراقة

لاكتشافاته؛ ـ قلما يبصر بعد المرمى، أو يفطن إلى استحالة المطلب، حتى يخطو في تأملاته العليا خطوات...

فلقد حبس نفر من العلماء أنفسهم في معاملهم منذ أكثر من أربعين عاماً، واضعين نصب أعينهم هذه المسألة: "أفي مقدور العلم يوماً أن يخلق ـ صناعياً ـ مادة لها كل خصائص المادة الحية؛ أي القدرة على النمو والتمثل؟..."

لقد جرأهم على هذا المطمع، اعتقادهم أن "الحياة" ـ في جوهرها ـ ليست سوى تفاعل القوى الكيمائية الطبيعية؛ فهي إذن قابلة أن تصنع في المعامل صنعاً... ولو أنهم ما اجترؤوا بعد على أن يتصوروا إمكان الوصول، دفعة واحدة، إلى صنع "خلية"، فالخلية في نظرهم جهاز، قد بلغ في تخصصه ودقته أسمى المراتب، وما هي إلا نتيجة تطور استلزم الملايين من الأعوام!... ومع ذلك فقد انكبّ العلماء يبحثون... فما استطاع أحد منهم سوى رافاييل ديبوا، ولبتلر بيرك، وهيريرا المكسيكي، وستيفان لبدوك؛ ـ أن يأتوا إلا بكائنات منحطة فيها شبهة حياة استنبطوها من الأملاح ونظائرها، واتضح لهم بعدئذ، أنها جميعها لا تدخل نطاق الكائنات الحية، بمعناها الحقيقي!...

على الرغم من ذلك يقول لنا البيولوجي "جان روستان" هذا القول المفعم بالتفاؤل: "إذا توصل العلم يوماً إلى خلق الحياة، فإن هذا سيتم حتماً بوسائل أخرى، وبالرجوع إلى طرائق الكيمياء العضوية التي لا تقهر، وإن النجاح الذي بلغته حتى الآن، في هذا المجال، ما عاد محل جدال، ـ فهي اليوم قادرة على أن تخلق ـ صناعياً ـ عدداً كبيراً من مواد النشاط الحيوي، مثل القلويات وحتى الهرمونات... الخ"

أما علماء الطبيعة "الفيزيقا"؛ فمنهم من يتجه وجهة أخرى، ويضع المسألة على أساس آخر "مثل شرودنجر" الذي يبحث في أصول الحياة، وهل هي تقوم على أسس القوانين الفيزيقية؟... بدون أن يتفاءل أو يتشاءم!...

أما أنا، الذي ليس بعالم، ويحاول جاهداً أن يتابع العلماء في أبحاثهم، ويلقي العنت الشديد في مطالعة آثارهم، ويتحامل متجلداً على تفهم كتبهم؛ فإني أتساءل متشائماً:

لنسلم، جدلاً، أن هؤلاء العلماء قد نجحوا في خلق خلية حية؛ ـ فما قيمة هذه الحياة الظاهرية، إذا لم تكن منطوية على تلك الخصال الكامنة العاقلة، التي تميز بعد نموها شخصية النوع؛ حيواناً كان أو إنساناً؟... تلك هي الروح!..

إنها ليست مجرد حياة بيولوجية عمياء صماء، تنمو داخل معمل نمواً آليا؛ ـ إنما المقصود بالروح ذلك الشيء الخفي الزائد على مجرد الحياة البيولوجية!... فهل في مقدور العلم أن يخلق لنا يوماً خلية نملة مثلاً، فيها روح النملة، بما فطرت عليه من سليقة الادخار والكدح والنظام؟...

ما أظن العلم يستطيع أن يخلق ذلك، ولا أقل من ذلك...

ويبدو لي أن العلم قد عرف أخيراً حدوده، وفطن إلى قصوره، وآمن بوجود شيء خلف تحليلاته ومركباته... شيء خفي لا يسميه الروح... ولكنه هو في حقيقة الأمر ذلك الروح الذي أشار إليه الدين!...

ولنصغ إلى العلاّمة "ا.م. جود" وهو يتحدث عن التحليل العلمي للإنسان، قال: "لو أن علماء الطبيعة، والكيمياء، ووظائف الأعضاء، والتحليل النفسي، والاقتصاد، والإحصاء، وعلم الأحياء الخ... اجتمعوا؛ ليقرروا الحقيقة عن الإنسان بعد الفحص الدقيق والتحليل العميق، كل في دائرة اختصاصه؛ ـ لما استطاعوا أن يخرجوا بحقيقة الإنسان!... لأن كل هذه التفاصيل المتفرقة عن الإنسان لو جمعت لما كونت الإنسان، فالإنسان ليس مجموعة

الـدقائق، الـتي يتكـون منهـا تركيبـه المـادي والحيـوي والنفساني، إنه أكثر من هذه المجموعة... إنه شخصية!.... هذه الشخصية شيء يفلت دائماً من غربال العلم ووسائله!... هـي شـيء لا تحسـه إلا إذا كنـت لهـذا الإنسـان صـديقاً، والصـداقة والحـب مـن الأشـياء الـتي لا يمكـن أن يحسـها العلم".

ويمضي "جود" بعدئذ يحدثنا عن نتائج التحليل العلمي لنكتة فكاهية؛ بلهجة لا تخلو من السخرية!... فيقول لنا: إن السير "آرثر أدنجتون" حاول أن يبحث في طبيعة "النكتة، وقد رأى أنها قابلة للتحليل، شأنها في ذلك شأن أي مركب كيميائي، فشرح جوفها، وفك أجزاءها، وقرر ما ينبغي أن يكون عليه النموذج الكامل لنكتة فكاهية!... وكان المنطق يقضي، بعدئذ أن نضحك للنكتة، ولكنا لم نضحك!... شيء فيها قد تبخر عند التحليل، ولو حاولنا عندئذ، أن نضم أجزاء نموذجية، لنكتة مثالية، حللها العلم وقررها؛ لما ظفرنا مع ذلك بالضحك!...

والضحك الذي ينسبه "جود" إلى النكتة، أسميه أنا الروح!.... على أن العلم قد بدأ يعترف صراحة، بعجز العلم

عـن الوصـول إلى روح الوجـود؛ بـل مـن العلمـاء مـن اعـترف صـراحة، بعجـز العلـم عـن الوصـول إلى روح الوجـود؛ بـل مـن العلماء من اعـترف صـراحة، أن الـدين هـو خـير طريق يوصـل إلى هذه الغاية!...

قـال "شـرودنجر" إن بصـيرتنا الدينيـة: لهـا مـن القـوة، والمتانة. والضمان، ما لبصيرتنا العلمية"!...

وقـال "إينشـتين": "بصـيرتنا الدينيـة: هـي المنبـع، وهـي الموجّـهُ، لبصـيرتنا العلميـة" هـذا الاعـتراف هـو، ولا شـك، كسب للدين، فما كان أحد فيما مضى ـ أي منذ قرن من الزمان ـ يتصور العلماء يقولون عن الدين مثل هذا القول!...

ذلك كـان حقـاً مسـلك الفلاسـفة والعلمـاء في الإسـلام، ولكـن العلم لم يقف في وجه الدين ـ تلك الوقفة المسـرفة في التحدي والغرور ـ إلا في القـرن التاسـع عشـر، ومـن يـدري؟... ربمـا يتحـتم علينـا، في الغـد، أن نتـابع سـير العلـم؛ لتثبـت أقدامنا في الدين!.

فما من شيء يرينا دائماً قدرة الله إلا عجزنا البشري...!

العلم متغير

يخيل إلينا غرورنا العلمي ـ في العصر الحاضر ـ أننا نستطيع أن نبهر أي عقل عظيم من عقول الماضي، وأن نشعره بعجزه الذليل، وتقدمنا الجبار، وأن نضعه موضع الحيرة، والعجب، والذهول؛ أمام اكتشافتنا الميكانيكية، والبيولوجية، والذرية!.. ولكثير من الكتاب والمفكرين اليوم، تصورات أدبية، وفكرية، لما يمكن أن يكون عليه الحال ـ لو ظهر في زمننا الحديث رجال من أمثال؛ "أفلاطون" و"نيوتن" و"أبي العلاء"!... يتصور "مترلنك" الأمر على هذا النحو؛ فيما لو ظهر اليوم "أفلاطون" واطلع على آثار حضارتنا القائمة!... إنه يراه ملقياً علينا أسئلة، تحتاج إلى أجوبة خليقة بذهنه النادر... أسئلة عن خطواتنا الثابتة الظافرة، في مختلف ميادين النشاط البشري...

سيسـألنا ــ بـالطبع أول مـا يسـألنا ــ عمـا صـنعناه في ميـادين الأخـلاق، والاجتمـاع، والسياسـة!... أي ربـح إنسـاني ظفرنـا بـه في تلك النـواحي؟... فبمـاذا يمكـن أن نجيـب؟... لا شـيء!... مـا مـن شـيء قـد تم بعـد؛ فكـل تجاريبنـا، وكـل خيالاتنـا، ومثلنـا العليـا وأكاذيبنـا؛ ــ تتقـدم في وسـائلها ونتائجها عما كانت عليه في عهد "أثينا"... ما خلا شيئاً واحداً قد تحقق، مبطنا بالنفاق والرياء؛ ـ هو إلغاء الرقيق!... ولـو فطـن "مترلنـك" قلـيلاً؛ لأدرك أن الرقيـق قـد أُلغـيَ في الأفـراد، ولكنـه مبـاح في الجماعـات!... وإذا كـان مـن حـق الفرد اليوم، أن يعيش حراً؛ فإنه ليس من حق بعض الشعوب أن تعـيش حـرة!... لم يكـف إذن مـرور أكثـر مـن ألفـين مـن الأعوام، لمحو هذا الظلم الإنساني في أبسط صوره!...

فإذا سألنا "أفلاطون" بعدئذ، عـن حـال الفـن، والفكـر والأدب؛ـ فمـا نسـتطيع أن نقـول لـه: إنـا تقـدمنا في ذلـك عـن "أثينـا" تقـدماً يـذكر!... ومنـا مـن قـد يجيبـه جوابـاً قاطعـاً لا تـردد فيـه: إنـا لم نـزل نحتـذي النمـاذج الإغريقيـة، دون أن نبزها في الكمال والإبداع!...

فإذا سألنا عما وصلنا إليه في الفيزيقا، والكيمياء، والطب، والجراحة، والفلك، والتاريخ الطبيعي، وعلم الأحياء، الخ، فإنه هنا سيجد لدينا أجوبة تدهشه حقاً!... سينظر ـ بعين العجب ـ إلى آلاتنا البخارية والكهربائية، وطائراتنا، وأسلحة حربنا، و"الراديو" و"الرادار".. الخ. فتصيبه رعدة في أول الأمر، ولكن عندما تخف وطأة الصدمة، سيلتفت إلينا متسائلاً:

ما الذي يمكن أن يضيفه كل هذا إلى ملكات الإنسان الروحية؟ إنه على حق؛ ـ فكل هذه المخترعات قد يسرت لنا سبل الحياة المادية... إن كل طفل في مجتمعنا العصري قد شب، وألف، وفهم هذه الاكتشافات أكثر من "أفلاطون" ولكن هل كل إنسان ـ في زمننا ـ له ذلك الروح المتألق، والثقافة المصفاة، والذوق المهذب الذي لأفلاطون؟...

هذا رأيي أنا الشخصي!... لو ظهر اليوم "أفلاطون" لكان هو دائماً "أفلاطون" تلك الشخصية الإنسانية الممتازة، في كل عصر، وفي كل زمان...

ولنفرض أنه ظهر حقاً، فهل هو صالح للحياة في وقتنا الحاضر؟... وهل يحب هذه الحضارة؟... وأي نوع من الناس يتخذهم أصدقاء؟... وأي بلد من البلاد يطيب له فيه المقام؟..

أسئلة لم يجب عنها أحد بعد... ولأحاول الإجابة السريعة فأقول:

إن "أفلاطون" يستطيع أن يعيش في زمننا هذا مبجلاً، قادراً على أن يكسب رزقه بعرق الجبين!... إن أيّةَ جامعة تقبله أستاذاً لفلسفته، يحاضر فيها، باللغة اليونانية، إذا شاء!...

أما أين يقيم؟... فمن المحقق أن "أمريكا" ستصنع المستحيل؛ كي تغريه بالإقامة فيها، والتدريس في إحدى جامعاتها!... ولكني أشك كثيراً في أن "أفلاطون" يحب هذه الحضارة الأمريكية الآلية الصاخبة، أو يطيق المقام في ناطحات سحبها الجوفاء ـ وهو الفيلسوف المشّاء ـ أو يرضى أن يعطي صورته، وحياته الخاصة طعاماً لصحفها ومخبريها، أو يحادث بعض فنانيها، دون أن يلوذ بالفرار!...

ولكنه سيجد له دائماً أصدقاء: من الأدباء والفلاسفة، وأساتذة الجامعات؛ ممن يقرؤون له، ويدرسون آثاره ـ وهم

بذلك يقيمون له خير دليل، على أنه حيّ في كل زمان!... يعيش معهم، دون أن يروه؛ فليس هو بالصديق المستجد، وإنما هو لهم صديق الفكر والروح من قديم!... نعم!... ما دام للروح قيمة في ذاتها؛ بما لها من شخصية، وذوق، وتهذيب؛ فالإنسان العظيم قدير على الاحتفاظ بقدره ومقامه في كل زمان ومكان، مهما تتجدد المعارف، ويقفز العلم، وتتعدد الاكتشافات، وتتغير الظروف والأحداث!...

إن الروح ثابتة، والعلم متغير...

هذا أيضاً دليل على أن الروح ـ لا العلم ـ هي مصدر الخلود!...

وجدتها.. وجدتها

في تاريخ العلوم قصة صغيرة طريفة، يتناقلها الناس في كل العصور، منذ القرن الثاني قبل الميلاد: "حيرون" ملك "سيرقوسة"، طلب ذات يوم إلى صائغ حاذق، أن يصنع له تاجاً من الذهب الخالص، فأذعن الصائغ للأمر، ومضى إلى عمله وانكب عليه، حتى أتَمَّ صنعه، وقدمه إلى الملك!... فلما رآه الملك داخلته ريبة في الصائغ البارع، وقال في نفسه: من يدريني أن هذا التاج قد صنع من ذهب خالص؟... ومن يثبت لي أنه لم يخلط بقدر وافر من الفضة؟... واستولت على الملك هذه الفكرة، حتى أرّقت ليله، وأقضّت مضجعه، ـ فلم يربد من أن يستشير في ذلك علامة العصر، "أرشميدس" قائلاً له: أريد منك، أيها العالم الحكيم، أن تكشف لي هذا الغش ـ إذا كان ـ وأن تتحقق لي من صفاء الذهب في

هـذا التـاج؛ علـى شـرط ألا تمسـه بسـوء، وألا تحـدث فيـه أثراً!..."

فمضـى "أرشميـدس"، يبحـث ونقـب طـويلاً ـ علـى غـير جدوى ـ عن الوسـيلة التي يعـرف بهـا مقـدار الـذهب، دون أن يمس التاج، وأعيته الحيلة، وكاد يسلم أمره لليأس!.. حتى كـان يـوم، ذهـب فيـه إلى الحمـام؛ ليغتسـل في حوضـه!... فبينما هو مغمور في الماء، لاحظ أن أعضاءه تفقد وزنها في المـاء علـى نحـو ظـاهر، وأنـه يسـتطيع أن يحـرك سـاقه فيـه ويده، فتتحرك بسهولة تثير العجب... في تلك اللحظة أشرقت بصـيرته بلمحـة مـن لمحـات الـوحي، قادتـه إلى اكتشـافه المشهور: قانون "الكثافة النوعية" للأجسام. فما تمالك عند ذاك أن خرج من الحمام ـ بعد هذه الإشراقة من الإلهام، وهو ثمل بفوزه، قد نسي ما سبق من أمره ـ وجرى في الطريق عاريـاً ـ دون أن يشـعر أو يعـي ـ وهـو يصـيح بالإغريقيـة: "يوركا!... يوركا!..." أي: "وجدتها!... وجدتها!...".

أنا أيضاً حدث لي مثل ذلك ذات يوم ـ أنا الذي لا يفقه شيئاً في العلوم ـ خيل إلى أني اكتشفت حقيقة علمية!... وهل مـن الضـروري أن يكـون الإنسـان عالمـاً: طبيعيـاً، أو

كيميائياً، أو فلكياً، لتكشف له الطبيعة عفواً عن سر من أسرارها؟!... إن الطبيعة امرأة قد يحلو لها أن تنزع نقابها، أمام من لا يعنيه أمرها، وتتحفظ وتتمنع على من يجري خلفها، ويقفو أثرها، أو قل: إنها استهانت بشأني أو لم تفطن إلى وجودي، فخلعت ـ على مقربة مني ـ إزارها... ومكنتني من الاطلاع على سر من أسرارها، وكان ذلك أيضاً داخل الحمام!... لكأن الطبيعة، هي الأخرى، لا تخلع برقعها، ولا تتجرد في حقيقتها العارية إلا في حمام!...

نعم ما من شك عندي في أني اكتشفت اكتشافاً علمياً، قد لا يقل في الخطر والأهمية عن اكتشاف "أرشميدس" وقد تجلى لي الوحي مثلما تجلى له... في حمام!... وكل الفرق بيني وبين الحكيم الإغريقي ـ هو أني نسيت أن أخرج من حمامي إلى الطريق عارياً أصيح: "يوريكا!... يوركا!..."، أي: "وجدتها!.. وجدتها!...".

فالذي فعلته هو أني ارتديت ثيابي؛ بكل تعقل، ورزانة، ورباطة جأش!... ولا غرو؛ فنحن الآن في عصر العقل المادي، وورق البنكنوت!... وخرجت من داري إلى الطريق بكل تؤدة ووقار، وذهبت من فوري إلى صديق لي، عالم

معـروف مـن علمائنـا الراسـخين في العلـم، ودخلـت عليـه وابتدرته قائلاً:

ـ أتعرف من الذي أمامك؟

ـ طبعاً... أعرف!...

ـ أراهنك بعشرة جنيهات على أنك لا تعرف...

لماذا تريد أن تخسر نقودك؟

قالها وهـو يخـرج مـن محفظتـه ورقـة ماليـة بالجنيهـات العشرة، واثقاً متحدياً... فصنعت مثلما صنع... وأخرجت ورقة ماليـة مثل ورقتـه... وكـلي ثقـة واطمئنـان، فنظـر إلـي باسمـاً قائلاً:

والآن؟...

ـ والآن... تكلم أنت... من أنا؟

ـ أنت صديقي فلان...

ـ أبداً... أبداً... أنا "أرشميدس"...

فحـدق في وجهـي ليتأكـد لـه اكتمـال قـواي العقليـة... ولم أمهله. فقد اقتحمت الموضوع اقتحاماً، وقلت له:

إني لا ألقي الكلام جزافاً يا صديقي... عندما أقول لك إني "أرشميدس" فيجب أن تصدقني!... لقد اكتشفت ـ مثله وفي مثل ظروفه ـ حقيقة علمية.. قد تقلب علم الكهرباء التطبيقية رأساً على عقب، وقد تغير نظام الصناعة الحاضرة، وتقرر مصير المصانع الحديثة؛ بل قد تغير نظر الخبراء العالميين، في مشروع خزان أسوان!... فالتفت إليّ العالم باهتمام يخالطه حذر...

ـ ماذا تقول؟... أنت تكتشف؟...

ـ ولم لا؟.... يضع سره في أضعف خلقه!...

ـ قصدي.. أنك لست بعالم كهربي...

وماذا اخترع العلماء الكهربيون المنتشرون في الأرض، العاكفون على الدرس والتدريس في المعامل والجامعات، وهم يعدون بالألوف!؟... كثير من أسرار الطبيعة، تجلت بالمصادفة للبسطاء أمثالي، قبل أن يتلقفها العلماء المحترفون، ويبحثوها، ويقرروها حقائق علمية!...

فبدا على وجه صديقي العالم أنه اقتنع. فأطرق مفكراً قائلاً:

في قولك شيء من الوجاهة، ولا شيء بمستبعد!...

ـ الوحي في العلم؛ كالوحي في كل شيء ـ يهبط على كل إنسان؛ فما المانع أن تهبط على مثلي حقيقة علمية مجردة عارية؟... لاحظ أنها هبطت في حمام... وأني أبصرها بإدراكي، وأراها ببصيرتي... وألمسها بيدي... وأحسبها في كفي... ثم أقدمها إليكم ـ معشر العلماء الجالسين فوق المكاتب، تقلبون في أوراق وسجلات وملفات، لتلبسوها بعد عريها ثياباً خداعة براقة، من صيغكم الفنية، ومعادلاتكم الرياضية، لتبدو في أعين الناس، حقيقة علمية وقوراً جديرة بالاحترام والتقديس!...

ـ قولك لا يخلو من صواب!... إن عمل بعض العلماء؛ كعمل الخياطة التي تلبس "الحقيقة" الثوب الذي تصلح به للظهور في المحافل، ولكن يجب أن تعترف أنه ما من امرأة تستطيع أن تظهر في الطريق عارية... كذلك "الحقيقة"!...

ـ وكيف استطاع "أرشميدس" أن يظهر في الطريق عارياً؟...

ـ لا تنس أنه كان عالماً... لقد شغل باله في الحمام بإلباس "الحقيقة" رداء، ونسي نفسه!...

ـ إني معترف بأن "حقيقتي" عارية، ولذلك جئت إليك لتصنع لها ثوباً حتى نخرجها إلى الناس جميلة المنظر، جليلة المظهر!...

ـ لا مانع عندي... هات لي هذه "الحقيقة"!...

ـ كلا يا صاحبي!... فلنتفق أولاً على الشروط!... إن النتائج التي ستترتب على هذا الاكتشاف ذات أهمية كبرى، خصوصاً من الناحية المالية ـ فلمن يكون حق الاختراع، وما يدره من موارد، لا تعد ولا تحصى؟!... فهرش صديقي العالم رأسه، ثم قال:

مهما يكن من قدر الاكتشاف فإن كل قيمته في التجارب العلمية التي تجري عليه، واستخلاص القوانين، التي يمكن استخدامها في التطبيق العملي والصناعي...

ـ ما معنى ذلك؟ اعرض شروطك، بلا مداورة ولا التواء!...

ـ تريد الصراحة؟... للمكتشف الثلث، وللعالم الثلثان!...

ـــ يـا للمبالغـة!... لجسـم الحقيقـة الثلـث وللخياطـة الثلثان!؟....

ـ إنـك لسـت الحقيقـة، ولا جسـمها!... مـا أنـت إلا رجـل عـابر، صـادف "الحقيقـة" في الطريـق عاريـة كاللقيطـة، لا تعرف لها مأوى ولا هـدفاً، فسـحبتها أنـت مـن يـدها، وقـدتها إلـي؛ لأزيـل عنهـا وسـخها وهمهـا و"عبلـها"، وأصـقلها، وأجلوهـا، وأدثرهـا، وأظهرهـا!... بالاختصـار، هـل تقبـل المناصفة في الحقوق؟!...

ـ نزولاً على حكم الصداقة وحدها... أقبل!...

ـ اتفقنا.. هات اكتشافك!...

ـ اسمع يا سيدي: كنت في الحمام منذ أيام... وكان في "الدش" خلل... ثقب متسع، فيما أذكر، يندفع الماء منه فوق الجسم بقوة شديدة... فاستقبلت هذا الماء المضغوط بكفي من ذلك الارتفاع، فإذا بي أشعر في اليد برعشة؛ كتلك الرعشة، التي تحدث من لمس سلك من أسلاك الكهربا!... هنـا أدركـت لسـاعتي أن ضـغط المـاء في ذاتـه يولـد قـوة كهربية... وعلى هذا القياس فإن الماء المندفع من عيون خزان أسـوان، يولـد كهربـاء بطريقـة مباشـرة بمجـرد الضـغط

والاندفاع... وهو ما لم يخطر، ولا شك، على بال أحد من خبراء مشروع الخزان؛ لأن الذي خطر ببالهم هو الانتفاع بضغط الماء في إدارة "مراوح" تحرك بعد ذلك "دينامو"، هو الذي يولد الكهرباء!... أما اكتشافي، فهو أن الماء نفسه في مساقطه، يولد كهرباء ـ بغير حاجة إلى "دينامو"!...

ما قولك في هذا الاكتشاف؟...

فنفخ صديقي العالم نفخة، خيل إليّ أنها أطارت كل صرح آمالي... وبعد أن تمهل قليلاً؛ ليستجمع ما بقي من احترامه المبدد لي... قال في نبرة سخرية مكظومة: أتدري ماذا اكتشفت؟...

ـ ماذا؟...

ـ البحر الأبيض المتوسط!... نعم، شأنك بالضبط شأن رحالة يأتي في هذا العصر؛ ليعلن إلى الناس أنه اكتشف بحراً عظيماً، فإذا سألوه عنه، قال: هو هذا البحر الذي يحد من الشمال بأوربا، ومن الجنوب بإفريقيا... يا صديقي الفاضل... كل جسم في حركته يولد كهربا؛ أنت الآن، وأنت ترفع يدك؛ تولد كهربا، وأن، تضعها في جيبك؛ تولد كهربا، وأنت، تتناول هذه الجنيهات العشرة من أمامي؛

تولد كهربا!... عجباً!... ماذا أرى؟... انتظر؛ حتى نبت في أمر الرابح للرهان!...

وكان السيف قد سبق العذل، وامتدت يدي، فاختطفت الورقة المالية، التي كنت قد أخرجتها، وجازفت بها؛ فقد لمحت شبح الخيبة والهزيمة في الأفق، فأسعفتني البديهة بضرورة الانسحاب السريعة.

ونهضت وأنا أقول لصاحبي؛ لأغطي انسحابي:

ـ أحقاً إني لم أكتشف شيئاً جديداً؟...

ـ دعك من هذا الهراء!... وحدثني عن الرهان!...

ـ ليس في الأمر هراء... كل شيء جديد عندي ما دمت أحسه بنفسي لأول مرة!... فلتمتلئ الدنيا بالحقائق العلمية، فكل حقيقة لم تدخل مدار إحساسي وإدراكي فهي لم تولد بعد!... أنا الرابح للرهان؛ لأن العبرة هي بأن أعتقد ـ أنا في لحظة من اللحظات ـ بأني "أرشميدس"!... وقد حدث هذا، ولا يهمني اعتقادك أنت، ولا اعتقاد الآخرين، ومع ذلك فالذنب ذنبي؛ فلقد كان في مقدوري ـ بكل سهولة ـ أن أقنعك وأقنع الناس!...

ـ كيف؟...

ـ لو أني فعلت؛ كما فعل "أرشميدس"، وخرجت من الحمام إلى الطريق عارياً!...

ـ لا تنس أنه في عصره لم يكن قد أسس بعد مستشفى للمجاذيب!...

فهززت رأسي؛ تأسفاً وترحماً على عصره السمح الحر، وتركت صاحبي العالم، وأنا أقول في نبرة المصر على حقه وفوزه ورأيه:

وبعد ذلك يسمون عصرنا الحاضر العصر الذي يشجع فيه المكتشفون!...

الباب السادس
الأدب والحضـــــارة

إذا أبصرت شعاعاً، فاعلم أن وراءه كوكباً...
وإذا رأيت أدباً، فاعلم أن وراءه حضارة... وما
من خطر يهدد الشعاع إلا انفجار الكوكب!...

الحضارة في الغد

يعجبني من مفكري الغرب، براعتهم في إبراز فضائل الحضارة الغربية، وما من شك عندي في أن لهذه الحضارة فضائل، ولكن الذي أشك فيه أحياناً، هو ما تنطوي عليه براعة هؤلاء المفكرين من مقاصد وأغراض... من ذلك أني وقفت طويلاً عند هذا القول؛ "لريمون فرجناس" في حضارة الغرب... قال: "إن هذه الحضارة الغربية قد ولدت في حوض البحر الأبيض المتوسط، من امتزاج الروح الإغريقي بالروح المسيحي؛ فهي إذن قد اتخذت مهدها هذه البلاد، المحدودة الرقعة الضيقة الآفاق، وجعلت إطارها هذه الطبيعة الرحيمة الهادئة؛ بجداولها الجارية، وأشجارها المثمرة بالزيتون!... إنها حضارة وديان... يعيش فيها بسلام الإنسان، وصديق الإنسان!... وإن ساكن الوادي لا يحسد عادة جاره على

واديه، ولا يطمع فيما لديه، ولا يتمنى أن يطرده من أرضه؛ ليحل في مكانه... وربما كانت تلك نظرة أقرب إلى الشعر!... وربما اعترض عليها معترض؛ بما يزعمه أهل الشرق، من أن حضارة الغرب هي حضارة حروب وفتوح!... نعم... حضارة الغرب تعرف الحروب، ولكنها حروب من أجل الكرامة، لا من أجل التوسع والفتح"!!...

هكذا يفكر ويتكلم هذا المفكر الغربي. إنه يجمل الحقائق تجميلاً رائعاً، وليت ما يقول صحيح!... إذن لكانت "أوروبا" هي الجنة الموعود بها المتقون، ولكانت الحروب قد انقرضت من الأرض، والأطماع قد زالت من الصدور... ولكن الواقع يقول لنا غير ذلك، مع الأسف الشديد!... الواقع يقول لنا وهو يشير بإصبعه: "اتبعوا الشمس حيث تسير، وافحصوا كل شبر من أرض، يقع عليها منها شعاع؛ ـ تجدوا راية غربية، وفتوحاً حربية، ومطامع استعمارية!"...

ويمضي ذلك المفكر الغربي في تصويره قائلاً: "إن فكرة الوادي ـ وهي الصورة التي يعتز بها ـ قريبة إلى فكرة السعادة؛ لذلك تبدو له الحضارة الغربية؛ كأنها حضارة الشعوب السعيدة... أو على الأقل حضارة أمم أقل

تعرضاً من غيرها، لقسوة الحياة، وكوارث الطبيعة!... هذا الهناء، النسبي في نظره، هو الذي أدى إلى ذلك الاحترام؛ لذات الإنسان في حضارة الغرب!...

ردي بسيط على ذلك المفكر: إن الطبيعة قد رحمت الغرب حقاً، وحبست عنه كوارثها، ولكنه هو لم يرحم نفسه، فقد خلق لذاته من الكوارث والمحن، وأنزل بأرضه من الخراب والدمار، ما لم يخطر للطبيعة على بال!... كل منبع للسعادة يسممه؛ حتى منبع الدين، وكل جار له يحطمه؛ حتى لو كان مصدراً للعلم والتفوق والاختراع!... لقد ولد الغرب في أرض السعادة حقاً، ولكنه رفض السعادة!...

ويقارن ذلك المفكر بين نظرة الشرق، ونظرة الغرب إلى الإنسان قائلاً: إن أولئك الذين ذهبوا إلى بلاد الشرق، هالهم ما رأوا من ثبات الشرقيين وهدوئهم أمام تلك الخطوب والكوارث التي تودي بحياة الملايين؛ ـ لكأن أهل الشرق يرون في الأوبئة والمجاعات والزلازل، أسباباً طبيعية، وحلولاً سماوية؛ لمشكلات ازدياد السكان، وقلة الطعام!... فالأموات يخلون مكانهم، ويتركون زادهم للأحياء... وتلك

نظرة تخالف، كل المخالفة، نظرة الغرب الذي يرى حياة الفرد الواحد لها من القيمة، ما لا ينبغي النزول عنه للغير بأي ثمن... إن التسليم بشقاء فرد ـ لضمان خير الآخرين ـ أمر يناقض التفكير الغربي...

هذا كلام طيب، مهما يكن في جوهره من الأثرة الفردية!... ولكن إلى أي مدى صدق هذا التفكير، في ميدان الواقع الغربي نفسه؟... إن المحافظة على حياة الفرد، وسعادته، وحقوقه، مبدأ عظيم!... ولو ثبت أنه من ابتكار الحضارة الغربية وحدها، لما وسعنا إلا الانحناء لها احتراماً!... ولكن المبدأ الآخر، الذي ينسبه ذلك المفكر إلى الشرق ـ وهو مبدأ تضحية الفرد من أجل المجموع ـ هو أيضاً مبدأ لا يقل سمواً عن المبدأ الغربي!... وفي رأيي أن كل حضارة كاملة، يجب أن يقف فيها المبدآن جنباً إلى جنب، ولا يدري أحد ما الذي سيكشف عنه الغد... ولكن الذي نراه اليوم، هو أن العالم قد انقسم إلى معسكرين؛ كل منهما قد اتخذ من أحد المبدأين رايته؛ فالمعسكر الشرقي تمثله الآن "روسيا"، بمبدئها الذي يقول: إنه يجعل للدولة الأهمية الكبرى، وللمجموع القيمة الأولى؛ على حين أن

المعسكر الغربي يقول: إنه يجعل للفردية الأهمية الأولى، وللفرد القيمة الكبرى!...

هل يثبت لنا الغد أن الطرفين على حق؟... وأن العالم لم يعد يطيق تعدد الحضارات؟... وأن دنيا المستقبل لن تقبل إلا حضارة واحدة، ترفرف بجناحيها الكبيرين على الأرض؟... وتضم تحتها أسمى المبادئ متسقة، وأنبل الأفكار مجتمعة؟؟...

الحضارة والشرق

الحضارة الأوروبية هي أحياناً كرداء المساخر، يجمع من الألوان كل متنافر!... فهي في الوقت الذي تمنح فيه النساء حق الانتخاب، تحرمهن حق التصرف في أموالهن، وتجعلهن في حكم القاصر، وتجعل الأزواج عليهن في أموالهن أوصياء!...

فكأن المرأة، في نظر الغرب، تصلح لتدبير شؤون الدولة، ولا تصلح لتدبير شئون مالها!... وعلى هذا الأساس المتناقض، منحت بعض الدول نساءها الحقوق السياسية؛ ـ مفتخرة مزهوة: ـ فدخلت نساؤها مجالس النواب، وفي أقدامهن أغلال الحرمان من حقوقهن المالية والشخصية!...

ثم رفعت هذه الدول الصوت مجلجلاً في هيئة الأمم المتحدة، مطالبة بمنح هذا الحق السياسي لكل النساء في بقية الشعوب...

يا للمهزلة!... لكأن صوت المدفع هو الذي يتيح اليوم للغرب المسلح أن يطلق صوتاً سخيفاً في شؤون المجتمع، يسميه صوت الحكمة والتقدم!؟... ولست أدري، كيف استطاعت أوربا "المتقدمة" أن تلبث القرون متخلفة عن الحضارة الإسلامية؟!...

لو كان لدينا ممثل قوي الشخصية، دامغ الحجة، في هذه الهيئات الدولية؛ ـ لصاح بهؤلاء القوم: ألا أيها النوّام ويحكم هبوا!... ألا تعرفون أن نساءنا المسلمات يملكن من حق التصرف في أموالهن، ما تطمعون اليوم في الوصول إليه؟...

ولكن مركب النقص في الشرق، يخيل إليه دائماً أن الغرب لا يتأخر، ولا يمكن أن يتأخر!... وما الغرب في حقيقة الأمر إلا متأخر جداً، في كل شؤون الروح والحكمة العليا!...

***

وإن من آيات تأخره، ذلك الذي يسميه "الحق السياسي"... ولقد نكب به شعوباً، ويريد أن ينكب به البيوت والأسر. هذا الغرب الهازل المتناقض يمنح هذا "الحق" للفرد ولا يمنحه للأمة... ما من أمة لها حق سياسي في تقرير مصيرها؛ ـ إلا إذا كان في يدها مدفع، وما من فرد انتفع بحقه السياسي في تقرير مصيره!... ولكنه قرر به مصاير من اشتروا، أو اختلسوا منه هذا الحق!... ما كلمة "الحق السياسي" إلا لعبة حمقاء، من لعب الغرب، شغلت بها الأذهان، بدون أن يثبت لها نفع!... وإذا رجع الغرب إلى حكمة الشرق، ورأى كيف فهم الإسلام الديموقراطية؛ ـ لجنى من ذلك دروساً قد تصلح من فساده، وتقيل من عثاره...

***

نشرت ذلك منذ سنوات في كتابي "عصفور من الشرق"، وقد ترجم إلى لغات أجنبية... ولكني ما جنيت من ذلك إلا تهمة، ألصقها بي كاتب، نشر بالإنجليزية في لندن كتاباً عن مصر، قال فيه عني: إني "رجل رجعي"، واستشهد بفقرات من كتابي المذكور.... أدركت عندئذ أن

الغرب غير راغب في أن يستلهم من نور الشرق شيئاً!... وأنه لا يزال يمعن في الاعتقاد بأن كل ما خرج عن حضارة الغرب فهو توحش، وأن كل ما اتصل بجوهر الشرق فهو رجعية!...

***

لست أدري: أنسمي هذا الموقف من الغرب عمى؟... أم نسميه تعصباً؟... لطالما رمانا الغرب بالتعصب؛ ــ زوراً وبهتاناً!... وما من أمة في الأرض، أبدت من التسامح والتساهل والحرية، ونبذت من الجمود والقيود، مثلما فعلت أمم الشرق إزاء الحضارة الغربية!... فلقد فتحنا أعيننا عليها بضمائر نقية، ونقبنا فيها بحسن نية، واخترنا ما اعتقدنا أنه ينفعنا في حياتنا الحاضرة، وما ينفي عنا شبهة التمسك بالبالي من المظاهر، وذهبنا في ذلك أحياناً أبعد مما ينبغي؛ فما وجدنا بأساً في أن ننقل عن الغرب كثيراً من الأردية، والأنظمة، والقوالب، والطرائق؛ فهي أعراض مما يلحق المدنيات القائمة، وأثواب مما يغلف العصور المتجددة!...

ولكن الذي ما كنا لنتهاون فيه قط هو: الروح والجوهر!... هنا ونقول للغرب: قف، وحذار أن تمس هذا

الجانب من الشرق، ومهما يكن من أمر اتهامه لنا بالرجعية؛ فنحن أقدم منه عهداً، وأكبر سناً، ونحن نعرف أنه الآن في شبابه المضطرب، ونشاطه المتقد؛ لا يمكن أن يتريث ليبحث عندنا عن معونة!... ولكن، غداً عندما يقعده الكبر، وتذله الهزيمة، ويذهب عنه الغرور، ربما وقف لحظة، وتلفت حوله، يتلمس الهداية؛ فلن يجد له عندئذ من هاد غير الشرق، مهبط الحكمة ومنبع النور!...

تراث الحضارات

إن العصر الذي نعيش فيه اليوم، هو عصر الصراع ـ لا بين القوى المادية وحدها ـ بل بين القوى الفكرية، وإن هذه التيارات الثقافية المحيطة بنا؛ من أنجلوسكسونية، ولاتينية، وسلافية؛ لتدفعنا إلى التفكير في موقفنا حيالها!... لقد فكر في ذلك فعلاً بعض شبابنا المثقف... ورأى أن يطرح على هذه الأسئلة:

"ماذا نأخذ وماذا ندع من حضارة الغربيين؟"

فأجبت بلا تردد:

نأخذ ما في رؤوسهم، وندع ما بنفوسهم؛ إحساسنا ملكنا، وإحساسهم ملكهم؛ فالشعور طابع شخصي، لا ينقل ولا يستعار، ولكن المعرفة ملك مشاع، ومتاع يتداوله الجميع!...

"وهل نأخذ كل ألوان المعرفة؟"

ـ كل ألوان المعرفة نأخذها، لا نترك لوناً واحداً... ما من شعب في هذا المعترك العالمي الحاضر، يغتفر له الجهل بعلم من العلوم، أو أدب من الآداب، أو فن من الفنون، ولن تقوم للشرق نهضة حقيقية إلا إذا أحاط بكل معارف الأرض إحاطة شاملة، ثم صهرها في قلبه، وأخرجها ـ مرة أخرى للناس ـ معدناً نفيساً يشع أضواء جديدة.

"وما الرأي في اختيار ثقافة معينة دون ثقافة، كاختيار اللاتينية مثلاً دون الأنجلوسكسونية أو العكس؟"...

ـ هذا خطأ!... كل الثقافات الموجودة يجب أن نلم بها إلماماً، وأن نتخير محاسنها ونقتطف أطايبها، فنحن لسنا مثل الغربيين مقيدين بواحدة منها دون الأخرى!... كلها لنا؛ نغترف منها، ونضيف إليها من ذات أنفسنا، ونضفي عليها من مشاعرنا، ونطبعها بطابع مزاجنا وإحساسنا!... لا يجب أن نتحيز لواحدة دون الأخرى، أو نتشيع، أو أن نقصر اطلاعنا على ثقافة دون ثقافة. ويجب ألا يكون للاتجاهات الشخصية، أو للمؤثرات السياسية، أو للظروف الدولية؛ ـ تأثير في إقبالنا نحو إحداها، وانصرافنا عن إحداها!...

فالثقافة ليست بضاعة مادية لأمة من الأمم، وإنما ثقافة كل أمة ملك البشرية كلها؛ لأنها خلاصة تفكير البشرية جمعاء!... ثقافة أي أمة، ليست سوى "عسل"، استخلص من زهرات مختلف الشعوب، على مرّ الأجيال؛ فليكن همنا جني العسل، دون النظر إلى جماعات النحل!... وهل من العقل ـ إذا لدغتنا جماعة من النحل ـ أن نقاطع عسلها؟!.... لقد عرفت رجلاً عسكرياً من الإنجليز، أيام الحرب، أشرف على الستين، ما كانت تذكر أمامه كلمة "هتلر" أو "النازية" أو حتى كلمة "ألمانيا" حتى يصعد الدم إلى رأسه غضباً؛ فقد كانت له في جنوب "إنجلترا" أسرة، ذاقت الأهوال من القنابل الألمانية الطائرة. وكان له أهل وأقرباء، قتلوا في الحرب ضد الألمان، وعلى الرغم من ذلك، ما كنت أراه يخلو إلى نفسه، وفي فترة راحة من عمله؛ حتى أجده عاكفاً على كتاب بعينه، يطالعه باهتمام، فنظرت ذات يوم إلى ما بيده؛ فإذا هو: كتاب ألماني يتعلم فيه اللغة الألمانية وآدابها، فدهشت!... هذا الرجل الذي يمقت الألمان هذا المقت، يتعلم لغتهم ويعني بآدابهم وثقافتهم وفي مثل سنه؟!.... وحادثته في ذلك فقال: "وما وجه العجب؟! هل

الثقافة الألمانية ملك الألمان وحدهم؟!... هذا درس يجب أن يوضع تحت عين كل شرقي!...

"أليس لنا مع ذلك أن نساير، من بين الثقافات الغربية، ما يناسب "طبيعتنا الشرقية، أو ما يصلح لها في نهضتنا الحاضرة؟..."

ـ من رأيي ألا نهمل شيئاً؛ فكل ثقافة لها مزاياها، وما دمنا الآن في مجال الاختيار والاغتراف، فيحسن بنا أن نرسل أبصارنا إلى كل جهة، وألا نحبس أنفسنا في سجن ثقافة واحدة بعينها... أو أن نتجه إلى ثقافة شعب واحد من شعوب الغرب... الحذر كل الحذر من إهمال ثقافة، أو مقاطعة ثقافة!... لقد غلط العرب القدماء غلطة، هي التي جرَّت علينا اليوم هذه العزلة الذهنية، وقطعت ما بيننا وبين "أوربا" من معابر ومسالك؛ ـ تلك هي مقاطعتهم قديماً لثقافة اليونان والرومان!... فلو أنهم نقلوا واتصلوا بكل آداب الإغريق والرومان، وحذقوا كل فنونهم، ولم يهملوا لوناً واحداً من ألوانها، ولم يغفلوا فرعاً من فروعها؛ ـ لكان قد حدث اليوم العجب: كانت الحضارة العربية الآن هي الأساس المباشر لكل ثقافة الغربيين الحاضرة، ولكانت هي التي

حلت لديهم محل الثقافة اللاتينية، وزادت عليها روحاً أخرى، هي روح الشرق... لو أن هذا حدث ـ وليته حدث ـ لكانت حضارة "أوربا" اليوم في صورة أروع مما هي عليه الآن وأعمق!... كلنا يعلم أثر بعض الفلاسفة العرب؛ أمثال: "ابن رشد" و"ابن سينا"، ممن نقلوا الفلسفة الإغريقية وفسروها!... لقد كان لهم الفضل على "أوربا" في القرون الوسطى... والأوربيون يعترفون بذلك الفضل، ويشيدون به... ويقولون عن أولئك الفلاسفة العرب: إنهم كانوا بمثابة الجسر الذي نقل إليهم آراء "أفلاطون" و"أرسطو"... ولكن الفلسفة ليست سوى فرع واحد من فروع الثقافة!... فكيف لو أن العرب وأدباء العرب كانوا هم الجسر الكبير الكامل، الذي ينقل الثقافة الإغريقية بفنونها، والرومانية بأصولها!... وقد أضافوا إليهما مما في جعبتهم، من عبقرية الروح الشرقي، وحيوية الذهن العربي؟... هذا هو الذي يدفعني إلى تنبيه الشباب في بلادنا، إلى أن يلتفتوا اليوم إلى كل ثقافة، وأن يعنوا بكل حضارة ـ لعلهم يتاح لهم في مستقبل الأيام أن يخرجوا للعالم مدينة جديدة، تفوق كل مدنية موجودة!...

شمس الشرق

آن الأوان، في هذا العصر للقضاء النهائي على فكرة الاستعمار، والسيطرة بالقوة على الشعوب والأفكار ـ لا للسبب المعروف وحده؛ من أن ذلك يتعارض مع مبادئ الحرية، والعدالة، وحقوق الإنسان ـ بل لأمر آخر أشد خطراً على الحضارة البشرية وأعمق أثراً!...

إن سيطرة الغرب على الشرق اليوم، لا تكتفي بالإخضاع المادي والاقتصادي!... إنها تشمل أيضاً الإخضاع الروحي ـ الشعار اليوم: "من يحتل أرضك يحتل فكرك، ومن يسلب بلدك يسلب روحك!"...

"أمريكا" لا تقف في "اليابان" عند حد الاحتلال العسكري؛ إنها تريد أن تفرض عليها تفكيراً اجتماعياً،

وتلبس ذلك الروح الشرقي عقلية أمريكية!... هي تزعم أنها تمدن "اليابان"!...

وبريطانيا في الشرق الأوسط والهند، وفرنسا في شمال إفريقية!... عين الخطة والطريقة!... وليس الباعث في كل الأحيان إصبع الاستعمار وحدها، ولكن وجود غالب ومغلوب، يؤدي حتماً إلى تغلب روح على روح، وفكرة على فكرة؛ ليتلاشى المقهور في القاهر!...

ما النتيجة، لو أدى الاستعمار الغربي إلى محو الشرق؛ بروحه، وتفكيره؟... ماذا يحدث للدنيا، إذا فتحنا أعيننا ذات صباح فلم نجد "الشرق"، ووجدنا الغرب وحده؛ بشمسه، ونوره، وناره؟!...

إن الذي سيحدث معروف ـ وإن طال الأمد!... إن شمس الغرب الفاترة الباردة، الشاحبة العجوز، لا بد مِنْ أن تغرب يوماً، وأن يحل الظلام في الأرض، فمن أين تطلع مرة أخرى فتية قوية؟... إذا لم يكن في الأفق شرق؟...

أخطأ فكرة في ذهن الغرب اعتقاده أن "الحضارة الغربية" هي كل شيء.. إنها عقيدة طفل، يرى شمس العصر

المائلة فوق البحر، وهاجة ساطعة، فيحسب أنها في السماء مسمرة، وفي الفضاء مثبتة!...

شمس الغرب غاربة لا محالة!... متى؟...

يوم تنتهي "الطريقة العقلية" إلى نهايتها الطبيعية!... إن الغرب يستخدم الطريقة العقلية؛ كالطفل الذي يلهو بحبل "الديناميت"!... لقد أوقد طرفه، وترك ناره تجري فيه، وهو فرح طروب مزهو فخور... لذلك الوهج والنور يجري ويسري؛ كأنه انتصار تلو انتصار، لا يريد أن يوقفَه لحظة؛ لينظر في نهايته، ويتأمل آخرته؛ إلا ثمل بالنور الجاري الساري، ولن يفيق حقاً، ولن ينتبه إلا على صوت الانفجار وحلول الدمار!...

أيها الغرب!... العب بحبل تفكيرك ما شئت، ولكن ابق على الشرق قليلاً، واترك له بعض أنفاسه، ودع له بعض روحه؛ فهو الذي سيقوم غداً، زاحفاً على ركبتيه الخائرتين؛ من ثقل نيرك، ماذا إليك يديه الضعيفتين؛ من أثر أغلالك، ـ لينتشلك من المحنة، وينتزعك من الفناء!...

الحضارة روح

عندما انهارت "اليابان" أمام القنبلة الذرية، في الحرب الأخيرة سألت نفسي: هل انهارت "اليابان" حقاً؟... أو الذي انهار فيها هو الحديد؟... هل هزمت "اليابان" حقاً، أو أنه لم يهزم فيها غير العارية التي استعارتها من الغرب؟... أما الجوهر الذي ينبع من نفسها، فهو باق لا ينهار، ولا يهزم!... وهو وحده المنبع الذي تصدر عنه كل القوى المتجددة، التي لها الغلبة آخر الأمر... القوى الميكانيكية التي ارتدتها "اليابان"، على غرار أردية الغرب هي في الواقع التي كسرت وسحقت، وهي وحدها القابلة للكسر والسحق والتحطيم!... قوة المادة مهما تكن عظيمة الخطر، فهي موقوتة الأثر!... وهي سهلة المنال، سريعة الزوال!... هي لك اليوم ولغيرك غداً، هي لمن يدفع فيها الثمن الأبهظ؛ لأنها تشتري بالمال!...

لقد انتصرت "أمريكا"، لا لفضائل في جوهرها، ولا لمزايا في روحها، ولكن لذهب المموّلين الذي استطاعت أن تشتري به العلم والعلماء، وتحصل به على مواد الفتك وخبرة الخبراء... وهي بالمال تقتني كل شيء، تقتني كل مظاهر الحضارة التي تبهر بها العالم، تقتني كل الأثواب البراقة!...

ما من إنسان عريق الأصل، لم يجد في "أمريكا" سوقاً لعراقته، ولا لصاحب تجارب لم يبع تجاربه هناك، ولا لصاحب اسم لامع في أدب، أو علم، أو فن؛ لم تنصب له الشراك الذهبية؛ ليلصق اسمه بالجنسية الأمريكية!... بلاد لم تصنع الحضارة بما فيها، فاشترتها بمالها الذي جمعته سريعاً بشتى الوسائل!... "أمريكا"، بلد "السينما"... وهي كلها دولة مقامة على طريقة "هوليود": واجهات من الكرتون، وجدران تناطح السحاب من الأسمنت، وأناس يتحركون ويتكلمون ويتصرفون؛ طبقاً لرواية موضوعة، ألفها مؤلف أجنبي عريق!... أمة أوجدتها الظروف، وأنشأها المال، ومن الممكن أن تزيلها الظروف، أو يتخلى عنها المال؛ فتختفي من الوجود، بدون أن يخسر الوجود شيئاً، أو يحس لفقدها أثراً، أو ينال من بعدها تراثاً ذاتياً، أو ميراثاً

خاصاً!... فالحضارة بخير بها وبدونها؛ لأن العلم: بأساتذته، وتقاليده، وماضيه، وتاريخه، وتجاربه، وكذلك الفن، وكذلك الأدب، وكذلك الفلسفة، وكل شؤون العقل والفكر، وكذلك الدين، وكل شؤون القلب والروح؛ ـ موجودة من قبل "أمريكا" ومن بعدها!... جذورها ممتدة في غير تلك البلاد، ويمكن أن تورق، وأن تثمر دون حاجة كبرى إلى إغراء أو ضيافة...

كلا!... ليس المال كل شيء، وإن استطعت به أن تشتري "مظهر" الحضارة، فلن تستطيع أبداً أن تشتري "روح" الحضارة!...

روح الحضارة يبزغ مع الشمس من قديم في أرض أمة!... يبزغ مشاعر وإحساسات، قبل أن يظهر وسائل وماديات... إنه الإحساس الأول ـ الذي لا يشتري ـ بروح الله في أعاليه، وفي الكائنات!... والشعور الأول ـ الذي لا يقتنى ـ بروح الجمال في المخلوقات!... إنه ذلك الذي يجعل من الإنسان إنساناً!...

إنه ذلك الذي يشعر الإنسان بإنسانيته مباشرة ـ بدون وسيط أجنبي ـ شعوراً، ينبت معه ـ في أرضه ووطنه، منذ القدم ـ بخصائص تلك الأرض، وطابع ذلك الوطن!...

وقد ينشأ ذلك الشعور مع عقيدة سماوية، أو فلسفة أرضية، أو متعة فنية!... ربما كانت زهرة من أزهار بلد من البلاد، يتضوع معها ـ في نفس المحب لها ـ أريج ذكي لحضارة بشرية حقة!...

إن لم يقم دليل على حضارة "اليابان"، غير حب أهلها للأزهار؛ لكفانا ذلك!... أصغوا إلى هذا الحديث؛ لشاعرهم "أكاكورا":

"... عرفت الإنسانية شعر الحب، وقتما عرفت حب الأزهار!... إن اليوم الذي قدم فيه أول رجل بطاقة الزهر الأولى إلى محبوبته، هو اليوم الذي ارتفع فيه الإنسان فوق مستوى الحيوان؛ ـ لأنه بارتفاعه عن حاجات الطبيعة المادية، أصبح إنساناً... وبإدراكه الفائدة الدقيقة المتسامية لما هو "غير مفيد"؛ خلق في سماوات "الفن"!.. في الأفراح والأحزان، "الأزهار" هي لنا الصديق الأمين؛ فنحن نطعم، ونشرب، ونغني، ونرقص، وهي معنا!... ونحن نحب، ونحن نتزوج،

وهي معنا!... ونحن نمرض في فرشنا وهي معنا، بل نحن لا نجرؤ ان نموت إلا وهي معنا!... وحتى عندما نرقد في التراب، فليس سواها يأتي أخيراً؛ لتبكي بقطرات نداها فوق قبورنا!... كيف نستطيع العيش بغيرها؟... أهناك أقسى من أن نتصور العالم "أرمل" يحيا بدونها؟!.. لكن مهما يكن ذلك مؤلماً فإن من العبث أن نخفي عن أنفسنا الواقع: نحن ـ برغم دنونا من الأزهار ـ لم نرتفع كثيراً فوق مستوى الحيوان!... ما من "حقيقة" راسخة في كياننا دائماً غير الجوع!... ما من شيء مقدس عندنا غير شهواتنا... إلهنا عظيم ولكن نبيه في نظرنا هو الذهب؛ من أجله، وفي سبيل قرابينه، ندمر الطبيعة برمتها!... نحن نفخر بأننا أخضعنا "المادة"، ولكنا ننسى أن المادة هي التي أخضعتنا وجعلتنا لها عبيداً... يا لفظاعة ما نرتكب باسم الثقافة والإحساس والفكر؟!... حدثيني أيتها الأزهار اللطيفة!... يا دموع النجوم!... أيتها الناهضة في الحديقة، تترجح رؤوسك تحت رشفات النحل، وقبلات الشمس، ولمسات الندى!... أتعرفين ما ينتظرك غداً من مصير رهيب؟!".

الحضارة في دم الإنسان

روت الأخبار أخيراً أن جماعة ـ لا يزيد عددهم على العشرين من رجال ونساء ـ تمثل لهم شبح الحرب القادمة، وأدركوا مبلغ الدمار والعذاب اللذين سيحيقان بالعالم المتحضر، يوم تقوم تلك المجزرة البشرية التالية، وما سيكون فيها؛ من قنابل ذرية، وصاروخية، ولاسلكية!... فأخذهم الروع، أو القلق، أو السخط، أو الضجر؛ فآثروا أن يتركوا هذا المجتمع الإنساني الذي يسمونه متحضراً، وأن ينطلقوا إلى جزيرة صغيرة نائية في مجاهل المحيط الهادي، يعيشون فيها بقية حياتهم عيشة بسيطة فطرية، لا ينقلون إليها شيئاً من المبادئ الاجتماعية، التي قام عليها العالم المتمدن؛ فلا ملكية تثير النزاع، ولا قيود تحد من الحرية!... فالنساء مشاع، والرجال مشاع، والطعام مشاع!... فلا زوجة،

ولا أسرة، ولا دين، ولا عقائد!... وأغلب الظن أنهم لن ينقلوا أيضاً، إلى تلك الجزيرة كتباً، ولا تحفاً، ولا مظهراً واحداً من مظاهر الفكر، أو الفن؛ حتى لا يتسرب إلى وطنهم الجديد بذرة من العالم القديم، قد تنبت لهم نوعاً من التفكير، يردهم إلى المشكلات الأولى، ويفسد عليهم هذه الحياة التي أرادوها، صافية كحياة الأطهار من الأطيار!...

***

أمثل هذا الحلم يمكن تحقيقه؟... في رأيي أن هذا يتوقف على مدة الحلم ومداه؛ فالحلم لا يمكن أن يحتفظ بصفاته الخالية إلا وقتاً قصيراً، فإذا طال أمده انقلب إلى واقع، واقترن به من الظروف والعناصر ما يخرجه عن صفاته، ويحوّله عن اتجاهاته!...

فهذا النفر، من الرجال والنساء يمكن أن يحققوا حلمهم هذا، لو اقتصر الأمر عليهم، فعاشوا ما عاشوا؛ لا ينسلون، ولا يزيدون، يمضون أيامهم على هذا الوضع الذي اختاروه، واصطلحوا عليه، تمر بهم الأيام وهم في هذه الجزيرة؛ كأنهم في رحلة خلوية طويلة الأمد، إلى أن يموتوا،

وينقرضوا، ويدفنوا تحت أوراق الشجر الذابلة، وتدفن معهم قصتهم الطريفة!...

أما الوجه الآخر من الأمر، فهو أن يتركوا نسلاً ويخلفوا ذرية، وهنا تبدأ قصة الإنسانية تكتب من جديد؛ فهذه الذرية سيكون فيها القوي والضعيف، والجميل والقبيح... بل سيكون فيها الأقوى والأجمل: ممثلين في صورة فتى مفتول العضلات، وفتاة رائعة القسمات!... عندئذ يظهر النزاع على الجميلة بين الرجال، فلا يلبث أقواهم أن يظفر بها ويستأثر، وبظهور الاستئثار تظهر الملكية، وما إن يبدأ الرجل يملك المرأة حتى تخلق "الأسرة" وما إن يكون كل رجل أسرته، ويكثر صغاره حتى يشعر بنبعته، فيخص ذويه وحدهم بثمار جهده وعمله... وبتعدد الأسر وتعدد المصالح، يحتاج الأمر إلى نظام وقانون، ثم إلى من يفرض هذا النظام ويطبق هذا القانون. وعندئذ يظهر رئيس القبيلة، أو زعيم الجزيرة، أو كبير هذا المجتمع الصغير، الذي بدأت نواته في التكوين، وبظهور النظام والقانون، اللذين يحددان العلاقات بين أهل الجزيرة، يظهر ما سيسمى بعدئذ بالعرف والتقاليد!..ثم تأخذ النوازل الضرورية، والنكبات

التي لا مفر منها، تحل بأهل الجزيرة؛ فهذه رياح هوج تعصف بأكواخهم، وصواعق من السماء تحرق أشجارهم!... وهذا رجل سيء الطباع، مكروه بين العشيرة، يغرق طفله!... وذاك رجل حسن الخلق محبوب، ينال من صيد البحر خيراً غير منتظر!... هنالك إذن قوة خفية، تنظر إليهم من خلال السحب، أو من أعماق البحر، أو من أغوار الغاب، تثيب المحسن، وتعاقب المسيء!... بهذا الخاطر، الذي يبرق في ضمير أحدهم يولد الدين، وبميلاد الدين أو العقيدة الإلهية، يظهر من أهل الجزيرة من ينقطع إلى التفكير فيه، ومزاولة شؤونه. إنه الكاهن يهرع إلى المنكوب من الناس، يسأله رد القضاء الخفي، أو الرحمة فيه؛ فيخفف عنه الكاهن ويعزيه... ويتفنن الكهنة في إيجاد الوسائل التي يؤثرون بها في نفوس الناس، حتى يكون لهم أثر محسوس في التعزية، والتلطيف، والتخفيف!. فيبتدعون الرقي، والتمائم، والتعاويذ؛ في صورة كلام منغم موسيقي موزون، يمس النفس، ويسر الأذن؛ وبهذا يولد الشعر!... ثم في صورة تماثيل وتهاويل، تحدث الروعة في القلب والبهرة للعين؛ وبهذا يولد الفن!...

وجدت إذن نواة حضارة؛ من مجتمع، وقوانين، وعرف، وتقاليد، ودين، وفن!...

فلنترك بعد ذلك الزمن الأكبر، يتولى على مدى الأجيال والقرون، تنمية هذه النواة؛ إلى أن تصير شجرة باسقة لحضارة هائلة، تنتج بذورها القنابل الذرية، والصاروخية، واللاسلكية!... ويهرب منها نفر، يتبرأ منها قائلاً: إلى حياة الفطرة... إلى جزيرة نائية، لا تنبت فيها مدنية أبدا!...

***

أيها الإنسان.. أين تهرب؟ إن ما تفر منه تحمله في دمك!... حيثما ذهبت وتوالدت خرجت من صلبك حضارة مضيئة مدمرة كالشهب... هكذا خلقت!... خلقك الله حقاً من تراب الأرض الطيبة... ولكن مسَّكَ بعدئذ إبليس، فصرت شهاباً، لا يهدأ حتى يبرق، ويحرق نفسه، وهو يهوى في أجواز الزمان!...

الإنسان والغريزة

قال لي صاحبي، ونحن على مائدة الطعام:

إني انتظر موسم "السماني" بصبر نافد في كل عام!...

ومزق كتف "السمانة" بيده، والتهم لحمها بلذة ونهم!...

فقلت له وأنا أصنع مثل ما يصنع:

"السمان" أيضاً يفرح بهذا الموسم!... لأنه في نظره موسم السياحة إلى المشاتي!...

فقال:

المشاتي؟!... يا له من أحمق!... لو علم أن هذه المشاتي ليست سوى بطوننا؟

فقلت:

لو علم؟... ومن قال لك إنه لا يعلم؟!...

فقال بنبرة دهشة:

ماذا أسمع؟... أتراه يعلم؟!...

فقلت:

ولم لا؟... من المحتمل جداً أنه يعلم...

فقال:

يعلم أنه يأتي إلينا كل شتاء للسياحة، فنتلقاه في بطوننا؟!...

فقلت بهدوء:

شأن كل سائح!... أيجهل أولئك الذين يأتون إلينا كل شتاء للسياحة، أننا سنتلقى ما معهم بجيوبنا!...

فقال:

طبعاً، كل سائح يأتي وهو يعلم أنه سينفق ماله، ولكن "السمان" لا يمكن أن يعلم أنه يأتي لينفق حياته!...

فقلت:

ثق أنه يعلم، ومع ذلك يأتي!... إن العلم بوجود الخطر لا يمنع من المغامرة والسفر!...

فقال:

إنه إذن طائر قليل العقل!... لقد كان ينبغي له أن يعلم من قديم أن رحلته إلى المشاتي هي موسم فناء له؛ فمما لا شك فيه أن بعضاً من "السمان"، يستطيع في كل عام، أن يفلت من الشباك، ويعود سالماً من حيث جاء!... أمن المعقول أن هذا البعض يظل على غفلته وحمقه وعماه، لا يتعظ بما أوشك أن يقع فيه من هلاك؟... ولا بما رآه من هلاك أقرانه؟... فيمضي في ركوب هذا الخطر في مطلع كل شتاء، ناسياً ما سبق أن نزل بفصيلته من محن؟!...

فقلت باسماً:

أتريد من هذا الطائر أن يكون أكثر عقلاً من الإنسان؟! إن للإنسان شباكاً منصوبة، في جوفها الهلاك لفصيلته البشرية: تلك هي الحروب؛ يفلت منها في كل مرة، وقد فنيت من نوعه الملايين، وكان ينبغي له أن يتعظ ويقول: "لن أعود إليها أبداً! ... لن ألقى بفصيلتي الآدمية في هذا الهلاك مرة أخرى!... كفى ما نزل بها من محن!..." ولكن الذي يحدث غير ذلك: إنه يمضي في الإلقاء بنفسه ونوعه في هذا الفناء، المرة بعد المرة، ناسياً ما سبق أن وقع

لـه!... وهـو في كـل مـرة، يجـد مـن ألـوان الـدمار، وقوتـه، ووسـائله أضـعاف مـا كـان يجـد!... إن شـباك "السـمان" علـى الأقـل هـي دائمـاً الشـباك!... لم تـتغير منـذ قـرون!... ولكـن شباك الإنسان من الحروب، تتغير أساليب هلاكها، ويتسع نطاق ضررها، بسرعة تذهل العقل، وتحير اللب، ومع ذلك، لا حديث للإنسان إلا عن موعد رحلته القادمة، على الحرب الضروس التالية!...

فقال صاحبي، بلهجة الاقتناع:

حقـاً... حقـاً... إن الإنسـان لأقـل عقـلاً مـن "السـمان"!... ولكن... فقلت له:

ولكن ماذا؟...

فقال:

ولكـن... إلى متـى؟... متـى يكـون في رأس الإنسـان عقل؟... متى يكف عن الإلقاء بنفسه في...؟

ومـد يـده إلى "سمانـة" أخـرى محمـرة في الطبـق، يريـد أكلها...

فقلت له:

إذا اختفى "السمان" يوماً من هذه الأطباق، ولم تعثر عليه في الأسواق، وقيل لك إن موسمه جاء وهو لم يجئ، وإن الشراك نصبت له فتركها منصوبة تنتظر بغير أمل؛ ـ فاعلم أن شيئاً قد حدث في مجرى الكون، وأن الطبائع قد تغيرت، وأن الإنسان هو الآخر قد عقل!...

الحضارة تتزين بالفن

وقفت في صف طويل، أمام شباك التذاكر، في قصر شايو؛ فهناك حفلة موسيقية تؤدى فيها بعض آثار "بيتهوفن"!... وأنا ما أزال على عادتي القديمة، لا يخطر ببالي أبداً أن أحجز مكاني مقدماً!... لا بد لي من أن أقف بالأبواب، وأحشر بين الجموع، وأنال مكاني بالجهد والعرق!... لكأني بهاتف داخلي يهمس لي دائماً: الثواب في الفن أيضاً على قدر المشقة!

ولكن أمامي في الصف مئات، وخلفي أيضاً مئات!... وكل شخص يحرص على الشبر من الأرض الذي عليه يقف، ويتطلع إلى الشبر من الأرض الذي إليه يزحف!... وحركة الصف ضعيفة، ولهفة الناس عنيفة، وإذا بي أسمع

الرجل الذي خلفي يخاطبني، بلغة فرنسية، تشوبها لكنة أمريكية:

من فضلك! احجز لي مكاني في الصف، حتى أتكلم في "التليفون" وأعود!... فالتفت إليه متعجباً:

ـ أحجز لك مكانك، في الصف؟... أنا؟!... بأي سلطة؟... إذا خرجت وتركت الصف، فكيف أقنع السيل الذي خلفك، بأنك موضع قدميك محجوز لك؟...

ـ شكراً يا سيدي!... فلأبق إذن!...

ـ نعم ابق واحرص على حقك بنفسك!... نحن في هذا القصر عينه الذي اجتمعت فيه هيئة الأمم... وكم ضاعت فيه حقوق لبعض الشعوب!... على الرغم من نضالها، وصياحها، ووثائقها، وبراهينها!... أفتستبعد أن يذهب فيه حقك؛ هذا الذي تريد أن تعهد به إلى عناية غيرك؟!...

وتركته والتفت إلى شأني، وحجزت مكاني، وانحدرت إلى قاعة الموسيقى من ذلك المبنى الكبير.

***

كان لا بد دون بلوغ هذه القاعة من هبوط إلى عمق عظيم في باطن الأرض، لم يجشمنا تعباً؛ فقد كان السلم الموصل إليه كهربائياً "ميكانيكياً"، يكفي أن تقف على درجته الأولى، حتى ترى الدرجة ذاتها قد تحركت بك؛ كأنها بساط الريح ـ فإذا أنت في القاع السحيق في طرفة عين!... عندئذ بدا لنا جلال في فن العمارة يشهد بالمقدرة والبراعة!... ما هذه الأروقة العظيمة، التي لا نهاية لها، تقوم فيها الأعمدة؛ كأنها الأشجار الباسقة، وتتخللها تماثيل آلهة الحب، والفن، والجمال!... وتنتشر بينها أضواء لا ترى مشرقها، ولا مغربها، وتزين جدرانها تصاوير، ولوحات؛ غاية في الذوق والإبداع، وتعترضها درجات سلم طويلة عريضة؛ كأنها الشلالات صاعدة من هنا، هابطة من هناك!... فإذا دخلت بعدئذ قاعة الموسيقى نفسها، وجدت مكاناً رحباً، يتسع لأكثر من ألف مقعد مكسو بمخمل ناعم، في لون الأرجوان... ووجدت المسرح في أحضان أعمدة من البرونز المصبوب، أو هكذا يهيأ لك!... كل ذلك في فخامة وأي فخامة، وبساطة وأي بساطة!... لكأني أمام روعة هذا المكان، في رحاب هيكل من هياكل الفن

المصري القديم!... ما من شك عندي في أن هؤلاء القوم قد تلقوا هذا الدرس الفني الذي أراه اليوم، عن آثارنا نحن القديمة!... ولكأني بهم، وقد هبطوا بتحفتهم تلك إلى الأعماق، ودفنوها تحت الثرى حية متألقة؛ إنما يطمعون في أن يطاولوا الزمان كما طاولناه... فإذن انطوى العالم، وكشف عن هذا المكان كاشف، في مستقبل الأيام؛ استطاع أن يقول فيهم بعض ما قيل فينا!...

***

على أني - وقد هدأ عجبي - طففت أسائل نفسي: أهم الفرنسيون حقاً الذين صنعوا ذلك؟... ومن أين لهم المال، وقد خرجوا من المحنة منذ قليل؟... وإذا كان في يدهم بعض المال، أفيضيعونه في تشييد هذه "القاعات"، التي نسميها نحن في "مصر" اليوم "كماليات"؟!...

***

واتخذت مقعدي، والتفت إلى جواري، فإذا الشخص الذي كان خلفي هو جاري!... وابتسم لي وحياني، وقدم نفسه إليّ؛ فإذا هو محام أمريكي من "بلتيمور"، جعل يتأمل المكان بإعجاب ويقول لي:

حقاً... إن "الثقافة" بالمعنى الذي يفهمه الأوربيون هنا، شيء لا تعرفه بعد "أمريكا"!...

فقلت له معزياً:

ولا "مصر"!... أقصد "مصر" اليوم!...

فقال لي دهشاً:

"مصر"؟؟... ولكن "مصر" عريقة في الثقافة!... إني لن أنسى ـ يوم احتفلنا في "أمريكا" ـ بعيد جامعتنا "هارفارد" وجاءت الوفود من ممثلي جامعات العالم، تحضر الاحتفال!... لقد كان ممثل جامعتكم "الأزهر"، يمشي في المقدمة مختالاً فخوراً، مباهياً بأنه يمثل أقدم جامعات الدنيا... وقد كنا ـ نحن الأمريكان ـ ننظر إليه متضائلين منكمشين، فأين جامعاتنا "هارفارد"، الصبية الحديثة السن من جامعة "الأزهر" الجليلة العريقة في القدم؟!...

قال المحامي الأمريكي ذلك، فشعرت في الحال بشيء من الزهو في أعماق نفسي... ولكني لم ألبث أن تحسرت وقلت في ضميري: ما أعظم التراث الذي نملكه، وما أثمن الكنوز التي ننام عليها... نعم!... ننام عليها ونخفيها تحت تراب إهمالنا وجهلنا وحمقنا... بينما تهب أمة مثل "فرنسا" المتهدمة؛ فتشيد من جديد ـ بمالها القليل ـ تحفاً، تعرضها للعالم، فتربح مجداً ومالاً... إنها تعرف بذكائها وفطنتها أن كل ما ينفق في هذا السبيل المجدي، يعود بالكسب المادي قبل الأدبي!... أتدرون كم من السائحين الأمريكان يزورون "باريس" في هذا الصيف؟!... يقدرون تعدادهم بمليون ونصف مليون!... إنهم ينفقون في فرنسا ملايين الدولارات!... لماذا؟... لأن فرنسا عرفت كيف تنفق المال أولاً، ليدخل جيوبها المال بعدئذ!... لقد فهمت أنه يجب أن تعرض على العالم شيئاً؛ ليأتي العالم إليها بذهبه... لقد شيدت، وخلقت، وعرضت، وجعلت من باريس "وجهة" بلورية للدنيا؛ فجاءت الدنيا إلى باريس!...

***

أمـا في مصـر... فواأسـفاه... القـاهرة "بـاريس" الشـرق، وعاصمة إفريقية، وملتقى الحضارات!... كل هذه الألقاب المجيدة، ولا تجد في شوارعها مبنى واحداً فخماً ضخماً يقوم بأعمدته؛ كأنه هيكل من هياكل الحضارة أو الفن!... اللهم إلا مبنى(المحكمة العليا) وكم فيه من عيوب!...

القـاهرة القائمـة في أرض الآثـار الفنيـة، تـرى فيهـا التماثيل البديعة، ملقاة في حقول الصعيد، أو دفينة في بطون الرمـال ــ علـى حـين أن ميادينهـا فارغـة خاويـة، إلا مـن المراحيض العامة!...

كل ميدان ـ وإن صغر في باريس، ينهض فيه تمثال، للزينة، أو لتخليد الذكر!...

ومـا أكثـر الميـادين هنـاك!... في كـل خطـوة ميـدان فسـيح، وحديقـة غنـاء!... لكـأن الأرض في بـاريس بـثمن الـتراب، في نظـر مجلسـها البلـدي!... كـل مـا يهمـه هـو أن يجمل منظر العاصمة، وأن يمتع سكانها وضيوفها، بالهواء الطلق والمنظر الحسن!...

***

ولكن الأرض في القاهرة بثمن التبر ـ في نظر أولى الأمر فينا ـ يستكثرون على القاهرة حسن المنظر، ونقاء الهواء؛ فيبيعون من أرض الميادين العامة للأفراد والشركات؛ كي تزدحم بالحوانيت والعمارات!...

***

نحن نشوِّهُ عاصمتنا، وهم يجملون عاصمتهم... نحن نهدم مجدنا القديم، وهم يصنعون لأنفسهم مجداً جديداً.

اللهم احمنا من أنفسنا؛ فإن أعدى عدو للإنسان هو نفسه!...

المحتوى

توفيق الحكيم وفنّ الأدب/ تقديم: مالك صقور.....5

الباب الأول: الأدب ويداه.....15
الخلق الذي يبتكر 17
النقد الذي يفسر.....27

الباب الثاني: الأدب العربي وتجدده 39
أثواب الأدب العربي 41
الجاحظ وعصرنا 50
فن جديد عند الجاحظ.....55
نظرة حديثة إلى أبي العلاء 60

الباب الثالث: الأدب والفن 67
مع فن الطفولة.....69
مع أهل الموسيقى.....78
مع أهل التصوير.....93
مع أهل الأنشاد.....107

الباب الرابع: الأدب والدين 119
السماء هي المنبع 121

الماء الحي 126
الحقيقة الكاملة 131
ثورة العقل 135
معجزة الدين 142
الإيمان بالحياة 150

الباب الخامس: الأدب والعلم 155
باب العلم المغلق 157
قل الروح من أمر ربي 162
العلم متغير 170
وجدتها.. وجدتها 175

الباب السادس: الأدب والحضارة 187
الحضارة في الغد 189
الحضارة والشرق 194
تراث الحضارات 199
شمس الشرق 204
الحضارة روح 207
الحضارة في دم الإنسان 212
الإنسان والغريزة 217
الحضارة تتزين بالفن 222

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة - فؤاد الشايب - د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	بالليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أدب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكان وسكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبرا ابراهيم جبرا- عرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
30	محمـود درويـش - مختـارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمـال أخـرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكايـة الولـد الفلسـطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسـئلة الثقافـة فـي القـدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان فـي القصـة السـورية (حضور المكان)-علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصـة ليلـة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمـالي ـــ مختـارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبيـر سـلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالـث وقصـص أخـرى مختارات قصصـية - د. خليفـة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	لغطـوان تشـيخوف دراسـات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابـراهيم الجرادي -عبـد العزيز المقالح	د. ابـراهيم الجرادي -عبـد العزيز المقالح	2010

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
45	عبد الله البردوني قصائد مختـارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسـعينيات والأنمـاط الشـعرية السائدة)	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمـي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختـارات شـعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. نائرزين الدين	2011
49	مایاکوفسکي غيمة في سروال	مالك صفور	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليـأس : أمـل يستنسخ أوصافه	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفرلني مـأخوذاً بـالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر لمرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علـي جعفـر العلاق	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صفور	مالك صفور	2011
55	جـان جـاك روسـو المصـلح الاجتمـاعي - محمـد عطيـة الأبرشي	مالك صفور	مالك صفور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صفور	مالك صفور	2012
57	حـي بـن يقظـان لابـن طفيـل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صفور	2012
58	بدوي الجبـل (محمـد سـليمان الأحمـد) عـام 1968 مدحـة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صفور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصـير - الشـاعر القـروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومصـارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقـه والتصـوف والمسـائل الشرعية في الخلافة	أ. محمـد راتـب الحلاق	مالك صقور	2013
76	"صالح العلي ثائراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
79	الأديـب والمفكـر أبـو حيـان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلـى العالم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2015